الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع [illegible] — القاهرة — تليفون رقم ٤٦٩٩٢/٥٦٧٩٩

العدد ٢٤٣ — الثلاثاء ٢٣ من شعبان سنة ١٣٦٢ — ٢٤ من أغسطس سنة ١٩٤٣ — السنة الخامسة

فهرس العدد

بعد فتح صقلية

للدكتور محمد عوض محمد

كان القدماء يقضون السنين الطوال ، يحاربون من أجل السيادة في صقلية ، ثم ينقضي الأمر بأن يحتل فريق طرفاً من الجزيرة ، ويحتل الفريق الثاني جانباً آخر منها . في ذلك الوقت كانت جزيرة صقلية عالماً عظيماً ، وقطراً ضخماً ؛ وكان لا بد للجيوش من شهور لكي تقطع المسافات ، التي لا تحتاج اليوم إلا لبضع ساعات .

وكان الطامعون في الجزيرة في ذلك العهد يكتفون بأن يكون لهم نصيب منها ، ولأعدائهم نصيب ، ثم يجنحون إلى السلم فترة من الزمن ، إلى أن تتاح الفرصة لإشعال الحرب مرة أخرى .

ولكن صقلية لا ينظر إليها اليوم بأنها قطر ضخم — رغم غناها واتساعها — وليست مقصودة لذاتها ، وإنما هي اليوم بمثابة درجة من سلم ، أو عتبة تعبر منها الأقدام إلى داخل البيت . والاستيلاء عليها لا ينظر إليه إلا بأنه خطوة أو مرحلة من مراحل الحرب .

في هذه الحرب الصقلية التي لم تدم أكثر من بضعة وثلاثين يوماً ، شهدت الجزيرة أحداثاً عجيبة ؛ لم تشهد الجزيرة في تاريخها الطويل أعجب منها ، على كثرة ما مر بها من الأحداث . وقد سبق للجزيرة أن كانت ميداناً للحروب بين الفينيقيين والرومان ، وبين العرب والروم ؛ وكان هذا في ذاته غريباً ؛ ولكن غرابته لا شك قد تلاشت لما شهدناه في هذه الأسابيع الأخيرة من حرب عجيبة ، يستطيع بعب الهجوم فيها جيوش آتية من وراء المحيط الأطلسي ، قطعوا آلاف الأميال لكي يشتركوا في غزو جزيرة من جزر البحر المتوسط ، حاملين معهم عتادهم وآلاتهم وأسلحتهم ، وكثيراً من طعامهم وملابسهم . ومن الجيوش

الأمريكية أفرادا أتوا من الجانب الشرقي من الولايات المتحدة ، وهؤلاء قد قطعوا نحو عشرة آلاف من الأميال ، لكي يقاتلوا في جزيرة صقلية .

هؤلاء هم المهاجمون ؛ أما المدافعون عن صقلية فقصتهم لا تقل غرابة . فإن القوات التي ثبتت طويلاً في ميدان قطانيا وفي حصن ترويتا وبندارو لم تكن الجيوش الإيطالية ، بل الجنود الألمان الذين جاءوا من شمال القارة الأوربية . وهكذا شهدت صقلية حرباً من أغرب الحروب التي مرت بها .

لقد تم للحلفاء فتح صقلية من أولها لآخرها في أقل من أربعين يوما ، دخلوها في اليوم العاشر من يوليو ، ولم يكد الشهر أن ينقضي حتى كان أربعة أخماس الجزيرة في أيدي الجيوش المتحدة ، ولم يبق أمامهم سوى الركن الشمالي الشرقي ؛ وقد اشتد القتال حول هذا الركن الصغير ، ودافع عنه المحور دفاعاً مجيداً ، مع [illegible] لا بد لها في النهاية أن تخلو من [illegible] ، لأن الحرب الحديثة لا تسمح لقوة محاصرة أن [illegible] .

ولكن قيادة المحور أرادت أن تطيل الدفاع عن هذا الركن الأخير إلى أقصى حد ممكن ، لكي تؤخر وصول الحلفاء إلى بوغاز مسينا بقدر الإمكان .

والآن وقد تم فتح صقلية ، وباتت الجزيرة كلها خاضعة لسلطان الدول المتحدة ، يجوز لنا الآن أن نبحث لكي نستخلص النقط البارزة التي امتازت بها هذه المرحلة من مراحل الحرب ، وننظر في التطورات التي تليها .

وأول ملاحظة تسترعي الانتباه أن غزو صقلية كان شيئاً يتوقعه جميع الناس ، منذ زوال قوة المحور في إفريقية في النصف الأول من شهر مايو الماضي . إذن كان غزو صقلية متوقعاً قبل حدوثه بشهرين . وفي أثناء الحرب الإفريقية نفسها كانت صقلية أهم مصدر لتموين قوات المحور في تونس ؛ فلا بد أن كانت الجزيرة ملأى بمعدات الحرب ، وقيها من الجنود العدد الكافي . ولئن كان هنالك نقص كبير في قوات الدفاع فيها ، فإن مهلة الشهرين كافية لاتخاذ الأهبة اللازمة لمقابلة غزو الحلفاء بما يستحقه من المقاومة العنيفة .

والجزيرة قطعة من الوطن الإيطالي ، وعلى اتصال مباشر بألمانيا ، فمن السهل إمدادها بالرجال والعتاد في مدة وجيزة ؛ بينما قوات الحلفاء يأتيها المدد والرجال من وراء المحيطات ، بعد قطع البحار الواسعة المعرضة لأخطار الغواصات والألغام ، وبعد كثير من النقل البري الطويل في شمال القارة الإفريقية .

فإذا كان غزو صقلية أمراً ينتظره الجميع ، وفي مستطاع دول المحور أن يمدوا الجزيرة بالقوة الدفاعية اللازمة لها ، فإن لنا الحق أن نعجب من أن قوات الحلفاء كانت [illegible] التفوق في البر والبحر والجو ، وأنها استولت [illegible] الفائقة ، وأن دول المحور في [illegible] القوة اللازمة للدفاع عن الجزيرة .

ومن المعلوم أن طبيعة الجزيرة الجبلية تجعل الدفاع عنها أسهل بكثير من غزوها وفتحها . ولقد كان من الممكن أن الوقفة التي وقفتها جيوش المحور في الطرف الشمالي الشرقي يكون لها نظيرها في الجنوب وفي الغرب ، لو أن هنالك جيوشاً تقف في سبيل الغزاة .

ثم قيل في تبرير هذه الظاهرة أمور كثيرة ، منها : أن قيادة المحور لم تكن تنوي الاحتفاظ بصقلية ، وأن الخطة التي رسمتها منذ بداية الغزو هي إخلاء الجزيرة تدريجياً ، والسماح للحلفاء باحتلالها مع تأخير هذا الفتح إلى أقصى درجة ممكنة . وإذا صح هذا فإن قيادة المحور لها رأيها وهي أدرى بوجاهته منا . ولكنا نحن عامة الناس يحق لنا أن نعجب من التضحية بهذه الجزيرة العظيمة ، ذات الموقع الجغرافي والحربي المنقطع النظير ؛ ونحن مضطرون لأن نفترض أن المحور قد جلا عن صقلية لأنه كان

عاجزاً عن الاحتفاظ بها .

ويحق لنا بعد هذا أن نفكر في سر هذا العجز .

إن ألمانيا تواجه حرباً شعواء في شرق أوربا ؛ والمرة الأولى تقف أمام جيش روسي استطاع في فصل الصيف أن يبدأ بالهجوم ، وأن يستولي على مدن وحصون منيعة ، وأن يرد الجبهة الألمانية عشرات الأميال إلى الوراء . إن الميدان الروسي أخطر خطراً من الميدان الصقلي ؛ وإذا أصابت الجيوش الألمانية كارثة في الميدان الشرقي تعرض الوطن الألماني كله للخطر ؛ ولم يعنه أن تخسر في إفريقية أو صقلية . ولقد أصيب الحلف المحوري بالهزيمة في إفريقية وفي صقلية فلم يكن لهذا نتيجة مباشرة على الوطن الألماني . ولكن إذا أتيح الروس أن يفوزوا بنصر كبير في جزء واحد من الميدان الشرقي ، أصيب الميدان كله بالانهيار ... ولهذا لم يكن بد من أن تكون عناية ألمانيا الأولى موجهة إلى الميدان الشرقي وإلى تقويته وتعزيزه بكل ما تملك [illegible] فضل من الجند والذخيرة والعتاد ولابد أن تكون هناك قوة احتياطية لهذا الميدان الخطير .

ولا بد لنا أن نستخلص من هذا أن ألمانيا في صيف هذا العام لم تكن تملك من القوات الاحتياطية ما يمكنها من إمداد الميدان الصقلي بحاجته من الجند ؛ ولهذا لم يكن بد من أن يكون اعتمادها الأكبر على الجيش الإيطالي ؛ وأن تكون القوة الجوية الألمانية بالقدر الضروري . ولقد اعتاد الناس أن يسخروا من الجيش الإيطالي ، وأن يصفوه بالضعف والعجز ؛ ولكن تصريحاً صدر من القائد الأعلى للجيوش المتحدة في الأسبوع الماضي يدل على أن في هذا الوصف شيئاً غير قليل من الإسراف . فقد قال الجنرال إيزنهور : إن القوات الإيطالية التي كانت تغطي تراجع الجيش الألماني المتقهقر قد أبلت بلاء حسناً . والذي نستطيع أن نستخلصه من هذا ، أن الجندي الإيطالي لا تعوزه الصفات الحربية اللازمة ، بقدر ما تعوزه الرغبة الصادقة في متابعة هذه الحرب . فبالرغم مما ذكر عن موقف الجنود الإيطاليين التي أبلت بلاء حسناً في المرحلة الأخيرة من الحرب الصقلية ، فإنه لا بد من التسليم بأن الجيش الإيطالي بوجه عام لم يقم بدفاع شديد عن الجزيرة ، وأن كثيراً من الوحدات كانت تسلم من غير حرب ؛ وأننا لا بد لنا أن نخلص بين هذا كله إلى نتيجة لا مفر منها ، وهي أن الجيش الإيطالي — كالشعب الإيطالي — قد أخذ يسأم الحرب ، ويزهد فيما قد وعد به من الغنائم ؛ وبات اليوم وأقصى أمانيه أن تضع الحرب أوزارها ، وأن ينعم بالسلم مرة أخرى .

إن هذه الروح موجودة في الجيش الإيطالي ولا شك في وجودها ، كما أنه لا شك في أنها آخذة في الزيادة والانتشار ، وقد زاد في تأكيدها وانتشارها زوال الحكم الفاشستي ، واعتقاد الناس بأن الحرب شديدة الصلة بذلك الحكم ، ومنطق الأشياء يقضي بأن تزول الحرب [illegible] الحقيقة — وإن تجاهلها رئيس الحكومة الإيطالية في الوقت الحاضر — فإنها ستكون من الأمور ذات الخطر في تقرير مجرى الحوادث في المستقبل .

* * *

وصفوة القول إذن أن الحلفاء قد تم لهم فتح صقلية بهذه السرعة لسببين : أولهما عجز ألمانيا عن إمداد الميدان الصقلي بالقوات الكافية ؛ والثاني فقدان رغبة الجيش الإيطالي — أو جزء كبير منه — في متابعة الحرب . ويحق لنا أن نتساءل : إلى أي حد سيظل هذان السببان قائمين بحيث يؤثران في جميع تطورات الحرب المقبلة ؟

تقف جيوش الحلفاء الآن على مضيق مسينا ، لا يفصلهم عن أرض إيطاليا سوى مساحة ضيقة من الماء ، لا تزيد على الميلين في أضيق جزء من المضيق . والجزء المقابل لصقلية هو مقاطعة كالابريا ، وهي إقليم جبلي وعر ، ترتفع أرضه من ساحل البحر المقابل لمسينا ، فلا تلبث حتى تبلغ نحو ألفين

من الأمطار . وطرق المواصلات الوحيدة فى هذا الإقليم تلازم الساحل الضيق بين البحر والجبل .

ومن المعلوم المشهور أن إيطاليا تمتد نحو الجنوب فى شكل شبه جزيرة ، وطرفها الجنوبى يشبه النعل ؛ فكأن إيطاليا كلها عبارة رجل قد ألبست حذاء ضخما ، ومقدمة الحذاء هو مقاطعة كالابريا المقابلة لمسينا ، وكعب الحذاء هو مقاطعة أبوليا الشرقية على البحر الأدرياتى . وهذا الكعب طويل جداً ، بحيث يكون بينه وبين مقدمة الحذاء فراغ عظيم يحتله البحر فى صورة خليج وهو خليج تارنتو ، حيث الميناء الحربى الشهير المسمى بهذا الاسم ؛ وحيث يقيم الشطر الأكبر من الأسطول الإيطالى .

والآن — وقد تم للحلفاء بسط سلطانهم على صقلية — قد أخذ الناس يتحدثون فى الخطوة التالية ؛ فى احتمال أن يحاول الحلفاء عبور المضيق ، واحتلال الطرف الشرقى منه ؛ وكأنهم بهذا يتابعون حملتهم ويسيرون فى نفس الطريق الذى سلكوه من قبل ، [illegible] ، معتبرين هذا المضيق مجرد عقبة ، أو خندق [illegible] الوثوب فوقه .

غير أن الحالة أكثر تعقيداً من هذا ؛ فإن الاستيلاء على صقلية يتيح للفاتحين احتمالات عديدة . فهم ليسوا مضطرين لأن يهاجموا الطرف الجنوبى من كالابريا ، وأمامهم جهات أخرى أكثر سهولة . وفى وسعهم أن يهاجموا أبوليا ، وهى أرض سهلة يمكنهم الاستيلاء عليها من التسلط على ميناء تارنتو وبرنديزى ، والتحكم فى مدخل البحر الأدرياتى ؛ إذ ليس من شك فى أن كعب الحذاء أجل فائدة وأعظم نفعاً من مقدمة الحذاء ذات الطبيعة الجبلية والمسالك الوعرة . كذلك فى وسع الجيوش المتحدة أن تغير على سواحل إيطاليا الجنوبية ؛ وأن تحاول احتلال خليج سالرنو أو خليج نابولى نفسه ، أو خليج بوليكاسترو ؛ ولعل الاحتمال الأخير أقرب إلى الظن .

على أن الخطط الحربية قمينة بأن تخلف كل ظن ، وأن تأتى بما لم يكن متوقعاً . ولقد صادف فتح صقلية انعقاد مؤتمر خطير فى أمريكا يشهده كبار سادة الحرب والسياسة من بريطانيين وأمريكيين . وأخذت الألسن تردد أن قرارات خطيرة لا تلبث أن تقطع ، وأن خطوات جليلة فى الحرب الأوربية توشك أن تتخذ . ولقد قيل فى جملة ما قيل ، إن أهمية غزو إيطاليا قد نقصت عما كانت ، وأنه يكتفى بفتح صقلية والتحول إلى ميدان جديد ؛ وأشير إلى أن هذا الميدان هو غربى أوربا . وليس يستبعد أن يحاول الحلفاء غزو أوربا الغربية فى هذا الخريف ، فإن حملة صقلية قد أكسبت جيوشهم خبرة جديدة ومرانا على هذا الضرب من الأعمال العسكرية ، ولعل لديهم علما بأمور أخرى تبرر التعجيل بهذا الغزو .

ولكن الأمر الذى يصعب قبوله أن يكون هذا الميدان الجديد سبباً فى إلغاء كل عمل آخر فى جنوب إيطاليا . ولو أن الحلفاء استطاعوا الاستيلاء على جنوب إيطاليا ، وقطع النظر عن سائر المشكلة ، فإن هذا وحده يكسبهم منافع عظيمة جداً ، ليس أقلها خطرا تهديد شبه جزيرة البلقان ، والسيطرة على مدخل البحر الأدرياتى . . .

لهذا يصعب أن نتصور أن الحلفاء سيعدلون عن متابعة غزو إيطاليا اكتفاء بفتح ميدان جديد فى مكان آخر ؛ بل الأقرب إلى الظن أنهم سيمضون فى حملتهم الإيطالية التى لم تكن صقلية سوى المرحلة الأولى منها . وهذه المرحلة لا بد أن يفصلها عن المرحلة التالية فترة من الزمن . فبالرغم من أن مضيق مسينا قليل المساحة ، فإنه لا بد من مضى بعض الوقت ، لكى يتم فيه إصلاح المطارات القريبة من المضيق ، ولإصلاح ميناء مسينا نفسها ، والطرق الممتدة على شاطئ المضيق .

محمد عوض محمد

كفاح المـــوت

ترجمة الدكتور أحمد زكي بك

فقر الدم الخبيث

قلبٌ حسّاس ، وتجارب غالية

وعلى الثالث : طبيب شاب أمريكي اسمه « مينوت » ، من آل « مينوت » ، وهي أسرة شهيرة في الطب عريقة . وداء غشيناه هو فقر الدم الخبيث .

أما الداء فلا يعرف الأطباء له دواءً ، وهم على هذا يصفون له الأدوية على غير هدى لأن عليهم أن يصفوا شيئاً .

وأما الطبيب فقد تيسّر له في أول العيش ، وتيسرت له بهم السمعة الطيبة في الطب . ولكن القلب عرّفه بإشفاق عليه ، ولكنها عوّدته منها رغبة في تحصيل الضعف ، وعوّدته منها استقلالاً في الرأي أبى أن يخضع رأيه لا برضاه . وكان رأي الأطباء أن هذا الداء لا دواء له ، فلم يرض هذا الرأي . [illegible] العظيم ، أراد : إن من الأدواء أدواءً [illegible] لا اليوم ولا غداً . فلم يبلغ هذا القول .

وأخذ يبحث تحت المجهر دماء المرضى [illegible] فوجد أن دماءهم تحسن أحياناً لغير سبب ظاهر ، ووجدها يجري في تلك الدماء كريّات صغيرة غريبة ، يصبغها بالأزرق ، فيظهر نسيجها تحت المجهر شبكياً . فهذه كريات حمراء وليدة نزلت حديثاً إلى الدم ، أنزلها مصنع الكريات الحمراء بالجسم — وهذا المصنع هو نخاع العظام .

ويزول هذا التحسن في المرضى لغير سبب فتخلو من الدم هذه الكريات الوليدة .

واشتغل مع عالم الأمراض ، الدكتور « رَيْت » ، فكشفا أن فقر الدم الخبيث ينشأ من فساد في نخاع العظام يصنعها فيصنع كريات دم حمراء غير تامة . والآن الرأ :

وكان مينوت قد افتتح عيادةً صغيرة في بُسطن . ومن العجيب أنه حسب أنه يستطيع في هذه العيادة الصغيرة أن يمتحن كل شيء ، وكل أحد ، في دقّة وفي تفصيل ، وعلى مهل كما يعمل في معمل بجامعة . والحق أنه هكذا كان مع كل مريض أتاه ، من أي نوع كان ، وغنيًّا كان أو فقيراً ، حتى أملّ وأضجر . كان يطبق أساليب العلم على مرضاه ، وكان يسلك بهم طرائق العلم وهي طويلةٌ متعبة ، كما كان يعمل بهم بالمستشفى العام بماساشوستس ، أو كما عمل بهم في مدرسة الطب بجامعة هرفَرد . وكان يشغل عندئذ منصباً صغيراً بهذه المدرسة من هذه الجامعة . كان « مينوت » صديقاً حميماً لمرضاه . كان ينظر إليهم نظره إلى حيوانات التجريب في معمل ، ولكنه لم ينْسَ قط أنهم آدميّ من نسل آدم .

ويسأله مريض من مرضاه : « وهل تأذن لي في المشي والتنزّه قليلاً يا دكتور ؟ » .

فيجيبه الدكتور : « نعم لك أن تمشي حتى تأتي ساحل النهر ولا تتعدّاه . ثم لك أن تسير على النهر طولَ [illegible] ، ثم تعود بأقصر طريق » . ثم هو يجلس ليرسم في الورق أقصر طريق . ثم هو يكرّر للمريض : « بأقصر طريق ، أفهمت ؟ » . ثم تشع البسمةُ في عينيه الزرقاوين حتى [illegible] وكانت له ذاكرة عجيبة يذكر بها [illegible] من مرضاه — كيف ناموا ، وما أكلوا ، وأي الأشياء ، ولو تافهة ، تُدخل السرور إلى قلوبهم ، ثم متاعبهم في أُسَرهم . عَلِمَ كل دقيقة من ذلك .

وظلّ على عنايته بالدم وكلّ داءٍ يسبّبه اختلالٌ فيه . ولفقر الدم نوعه الآخر غير الخبيث ، ويُعرَف بفقر الدم الثانوي ، لأنه يكون نتيجة لداء في الجسم أولٍ أصلٍ . وهذا النوع الثانوي صنوف . فبين توفّر « مينوت » على امتحان دماء مرضاه دائماً أبداً ، صار داهيةً في تعرّف كل صنف من هذه الصنوف ، أهو من نزف ، أم من دودة شريطية ، أم من سرطان ، أم من زهري ، أم من ملاريا ، أم هو بسبب الحمل .

اجتمعت كل هذه الصنوف من فقر الدم الثانوي في كومة ، فأعلاها تلك الكومة العينة وقد احتوت صنفاً واحداً يعدل كلَّ تلك الصنوف شرّاً — ذاك فقر الدم الخبيث الذي لا أمل فيه ولا رجاء في شفائه .

واشتغل «مينوت» مع الدكتور «روجر لي» Roger Lee ، وهو طبيب قدير مجرِّب ، فسألت تأتيه المرضى تسأله : «ألا يمكن عمل شيء يا دكتور ؟ ألا يمكن شيء أبداً ؟» . وكان من هؤلاء المرضى قوم ضعفوا حتى عن الطعام لم يستطيعوا أن يقدموا رجلاً على أخرى ومنهم من ضعفوا عن الكلام ، وكيف يتكلمون وألسنتهم موجعة ملتهبة كقطع اللحم حمراء . كانوا يحسون الراحة ما نعموا في سكونهم وسكوتهم ، ولكنهم لا يلبثون أن يحسوا الضعف يركبهم متضاعفاً .

ويجيبهم «مينوت» على ما يسألون : «لم يمكن إجراء عملية إذا أنتم احتملتموها . ومع هذا لا نستطيع أن نعدكم شيئاً . أتفهمون ؟ لا نستطيع أن نوشككم أملا» . وتبين في عينيه وهو يتحدث مرارة مرة وآمالة قاسية .

وعلى هذا قام الجراحون ... من تسعة عشر مريضاً ... «لي» و «مينوت» — عام ١٩١٤ إلى ١٩١٧ ... بالمنية عن هؤلاء المرضى ... واشتد دمهم يزداد كثافة ، وأخذت أعضاؤهم تزداد قوة ، لتسعة أشهر أو لعام كامل . وراقب «مينوت» هؤلاء المرضى ورعاهم ، وهم لا طحال لهم . وأخذ يفحص دماءهم ، ويفحصها باحثاً عن تلك الخلايا الدموية الجديدة الوليدة عالما من نظام شبكي يصطبغ أزرق تحت المجهر . وكثيراً ما رأى الكثير من تلك الخلايا بعد العملية مباشرة ، فانبسط أمله ، ولكنها لا تلبث أن تقل وتعود سيرتها الأولى . ويود لو يعيد العملية حتى تعود تلك الخلايا الجديدة الوليدة إلى الظهور مبشرة بالخير ، ولكن أنى له أن يعيدها ، والمرء ليس له إلا طحال واحد . ثم يعود هؤلاء المرضى إلى رجال الحيل من حيث طلعوا ، ثم يموتون . لقد ماتوا جميعاً ، مات كل هؤلاء التسعة عشر .

كان وقع هذا شديداً على «مينوت» . وكان «مينوت» يحس آداب الطب عند أوثة المرضى ، ويمارس حيل الأطباء جميعها في مجاملة مرضاه في دقة فائقة . تعلم هذا الأدب ، وأخذ هذه الحيل ، عن الطبيب العظيم «ثاير» بلتيمور Thayer of Baltimore ، وهذا أخذها في دوره عن الحبر ولم «أُزْلَر» Osler نفسه . ولا شك أن أدب الطب وحيله تنفع المريض نفعاً كبيراً . ولا شك أن ابتسامة الطبيب تنير لمريض الطريق إلى الشفاء فتخفف من ظلامه . والطبيب يستطيع في التفريج عن المريض أن يذهب في هذا إلى حد البهجة الهادئة والنكتة المسرّة . إنها شخصية الطبيب تعين المريض عوناً كبيراً . ولكن الصعب أن شخصية الطبيب وأدب الطب لم يردا دماء هؤلاء المرضى كافة . وعمل «مينوت» على تكثيف ... وعن إنقاذها كتيبة ... كل ما استطاع من قوة ... و... لو كان ... Osler المعلم ، إذن اقترح ... إلى الأدهان والتسلية ، إلى الإيمان الجليل بالقسم ... جميعاً من كل هذا . ولكن ... «مينوت» ؟

وأخذ هو وزميله روجر لي Roger Lee — ينقلان من دماء الأصحاء إلى دماء هؤلاء المرضى ، كما كان ينقل كثير غيرهم . واتفقا ما بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٧ سبعين نقلة من الدم الصحيح إلى ستة وأربعين مريضاً .

قال مينوت : «وتحسن نصف هؤلاء المرضى لبضعة أسابيع» .

ولكنهم أخيراً ماتوا جميعاً .

وعدّ «مينوت» هذا الإخفاق وصمة في شرفه ، وعدّها لطمة لوجهه أن يموت كل هؤلاء . وقد كان تخرق العادة في هذا ، فمن ذا يلوم طبيباً إذا هو انتهى أخيراً إلى أن يتخلى بحساسيته عند موت مرضاه .

وبان لمينوت أن نقل الدم لا يكشف دم هؤلاء الضعفاء ، ومع هذا ظل ينقل هذا الدم لعل وعسى .

قال مينوت : «لا بد من نقل الدم حتى ولو ظهر أن

من مذكرات جحا :

الأديب عجيب بن جحا

للأديب الكبير صاحب التوقيع

[والعهدة على صاحب الوثيقة التي زعم أنها بخط ابن الأديب الكبير جحا نفسه ....]

ولدي عجيب من تلاميذ العصر الحديث الذين يعتقدون أنهم نشأة عهد تقدم وذكاء وعلم ؛ وهو مثل إخوانه وأبناء جيله ، يسيئون الظن بجيل آبائهم بقدر إحسانهم ظنهم بأنفسهم . ولم لا يفعلون وذلك أمر تقضي به سنة الكون منذ خلق الله الناس جيلاً بعد جيل ؟ كل جيل يبدأ في تحصيل المعرفة ، فيظن أنه قد أوجد المعارف بنفسه ، وكل منهم يذوق أول طعم تجارب الحياة ، فيكون كل شيء عنده جديداً ، فيحسب أنه قد كشف كشفاً جديداً لا عهد لأحد به من قبله ؛ فلم لا يكون ابني كذلك ؟ لست ألومه على مثل هذا الوهم ، فهو أمر طبيعي ؛ وكلما رأيته منتفخاً أوهامه تبسمت وتذكرت أحوالي إذ كنت في مثل سنه ، وأرد له الدين الذي كان لأبي في عنقي . هكذا نحن نسدد ديون الآباء للأبناء .

ولو كان عجيب ابني يكتفي بسوء ظنه بالجيل القديم لوافقته واستحسنت سمته ، فقد عاشرت هذا الجيل القديم وعرفته معرفة لم تتح لابني ، وكلما مرت بي الأيام زاد يقيني أن هذا الجيل القديم خلقة شاذة ، وما أدري أنعني فأنا كذلك خلقة شاذة ؟ بل لعلني أبلغ في الشذوذ عن الطبائع إلى الذروة ، فأنا شاذ في جيل شاذ . ولكن الداهية أن ابني يحسن الظن بنفسه وبأهل زمنه ، على حين أني لا أرى إلا زيادة متصلة في التخليط والخبط ، وقد وقع ابني فيما يسميه الأدب ، واستهتر به استهتاراً ، حتى بلغ به الأمر أن اشترى كرسوعاً صغيراً وضعه في جيبه ؛

فإنه لا يشفى من الداء ، فإن كثر الرعاية للمرضى عند ما يهيجها الألم المتقول ما أوصفنا قبله » .

والله وحده يعلم كيف استطاع أن يثابر على عمله ، وهو يعلم أنه الأمل الخائب ، وأن هؤلاء الناس ميتون ميتون .

لقد بلغت به كل حذاقة في الطب عند ذاك أن هؤلاء المرضى لا أمل لهم في الحياة . وقد كان في إمكان « مينوت » أن يتخذ من « أزار » قدوة يخفف به من شدة تأثره لموت هؤلاء المرضى . ومن أزار ؟ إنه أبقراط الطب . قال أزار :

« إن من الأدواء أدواء لم يكن منها قط شفاء ، ولن يكون لها على ما نحسب أبداً دواء ؛ فهذه الأدواء تجعل من بعضنا نحن الأطباء رجالا حساسين ، يرهفون مشاعرهم حتى تدق وترق ، فيتألمون حتى كأنهم عن حياة المرضى مسئولون » .

قال أزار هذا في خطابه الشهير عن علاج الأمراض في طور طلو في يونيه عام ١٩٠٩ .

وفي خطابه هذا قال : « إننا معشر الأطباء نعمل بعقولنا لا بسحر الساحرين . وما دمنا نبذل لمرضانا كل عناية ، ونرعاهم في رفق كل رعاية ، ونعمل ما في وسعنا لتخفيف آلامهم ... » .

والطبيب « مينوت » لم يكن يؤمن بالسحر والساحرين ، ولم يكن يؤمن بالخرافات ، وكان طبيباً عريقاً . ولكنه كان حساساً .

وقال أزار : « واحذروا أهل الطب أن تتحولوا له ، أو تسيئوا إلى سمعته بما تبذلون من وعود بالشفاء لا يبذلها إلا الأدعياء ، أو بما تسومون المشكوم فيه من النفع في علاجات اجتمع الرأي على أنها لا تنفع ولا تضر » .

لقد علم « مينوت » أكثر من كل أحد أن هذا الألم الخبيث لا يلين ولا يرحم . ولم يكن في الطب دعياً . ولم يبذل وعداً بالشفاء يبذله الأدعياء . ولكنه ، مع كل هذا ، لم يستطع أن يروض نفسه على ألا تمس الألم كلما مات له مريض بهذا الداء .

أحمد زكي

وكلما وجد فراغاً من وقته فتحه وأخذ يحفظ من ألفاظه كل ما شذّ واستهجن ، ثم تعوّد بعد ذلك أن يستعمل هذه الألفاظ في كتابته ومناقشاته ! وزاد به الأمر حتى ولع بعبارات يجمعها في قراءته من كل ما هبّ ودبّ من كتب هؤلاء المساكين المخدوعين ، الذين يحسبون أن الأدب لا يزيد على أن يطمسوا الصور ويلقوا على الألفاظ سحباً سوداء من الغموض ، فيضطر القارئ الذي لم يدرك لتوهم معنى أن يتهم فهمه ، ويدفعه اليأس إلى التسليم بأنهم نوابغ في الأدب ؛ وطالما صدع رأسي بما يقذفه عليه من عبارات هؤلاء البائسين ! وطالما سمعته يتغنى بالضوء الذي ينساب أعطاف السماء ، وبالنشوة التي تمشي في الظلال الراقصة ، وبالسحر الذي يتموّج فوق مجالي النبضات اللانهائية !! وكنت منذ ليال قلائل جالساً وحدي في الحديقة أتمتع بضوء القمر الزاهي ، فسمعته يتغنى بأبيات مما يسمونه شعراً [illegible] غناءه وإنشاده ، لأن الليل كان [illegible] تهييج أحس فيه ؛ ولا أزال إلى اليوم أتقصر كلما ترد هذه الأغنية بخاطري وعادت أصداؤها إلى ذاكرتي . كانت شيئاً لا معنى له ولا وزن ! ووالله لو كان ذلك شعراً لاستطاعت كل معزة أن تكون شاعرة ! كان يتغنى قائلا شيئاً مثل هذا :

الشجر والطير والسحاب ... والنور والحب والضباب

فلما زاد في الألم على قدر طاقتي هممت به أن يسكت ، ولكنه أقبل نحوي في حماسة شديدة ، وجعل يرجّع رجعاً متصلا بإنشاده ، حتى أوشكت أن يغمى عليّ .

من أجل كل هذا عُرف [illegible] ابني النبوغ بالأدب بين لداته ؛ وتمكّن منه الوهم فاعتقد أنه أديب وهب الله له من فضله ، وجعل يسألني عن أسماء شياطين الشعراء ليختار له واحداً من بينهم ظريف الاسم كريم السابقة .

وكثيراً ما أفضى إليّ بأمله في أن يكون كبير الأدباء في جيله ، فتأخذني الشفقة عليه ، فأهز رأسي صامتاً وأتركه يقول ما يشاء ، فالزمن وحده هو الكفيل بحل كل مشاكل الحياة ؛ ولا فائدة في المناقشات ، لأن تيار الحياة يحمل الإنسان في سبيله كما يريد هو لا كما يريد الإنسان . ولست أدري لعله حقيقة يصير إلى ما أراد ، ويتحقق أمله في أن يصبح كبير أدباء عصره ، فإن الزمن — كما قدمت — صائر إلى فساد بعد فساد ؛ فلعل هذا الأدب الممسوخ يكون في العصر المقبل آية الإبداع في أنظار أبنائه ؛ والعبرة بأهل ذلك الزمان لا بنا نحن — ومع ذلك فإني لم أتمالك نفسي يوماً من أن أخوض مع ولدي في مناقشة صاخبة ، عند ما سمعته يتحدث عن الأدب في حماسة حمقاء ، فقد قلت له عند ذلك ناصحاً :

— ماذا تريد من ذلك الذي تسميه الأدب ؟ حقاً أن [illegible] لكم معنى الأدباء ، لأنكم دائماً تسمعون [illegible] الأدب [illegible] ؛ ولكن الأدب الذي تقصده [illegible]

[illegible] فقال لي غاضباً :

— أتظنني لا أعرف معنى الأدب ؟ إني أعرف من عظماء الأدباء أكثر مما تظن .

فضحكت وقلت له :

— عظماء ! يا بني !

فقال وقد نفد صبره :

— بلا شك ! عظماء وخالدون أيضاً . وسأكون أحد الخالدين .

فقلت له :

— إذن مت جوعاً .

وما كان أشد عجبي عند ما سمعته يجيب معانداً :

— وماذا عليّ لو متّ ؟ إنها ضريبة العظمة ، إنها ثمن الخلود .

فنظرت إليه طويلاً ، وهززت رأسي آسفاً . وكان

أسفى شديداً ، لأننى أنا والد هذا الفتى الذى جنيت له بغير قصد أن يوجد فى هذه الحياة .

ولست أدرى من ذا الذى يلقى مثل هذه الأوهام فى عقول هؤلاء المساكين ؟ أم لعل هذه الأوهام تنبت فى الرؤوس بغير أن يلقى أحد بذورها كما تنبت الحشائش على جانبى الساقى .

أما إذا كان لا بد من إلقاء التبعة على أحد ، فإن هذه الخديعة البارعة لم يقترفها إلا تجار الكتب ، فإنهم بلا شك يخشون أن ينتقل الحق بهذه المعانى الجوفاء ، ومن مصلحتهم أن تشيع بين الناس مثل هذه العقيدة . يا خبرا عظاما ؟ من هؤلاء العظماء ، وما معنى عظمتهم ؟ إن نصف أصحاب هذه الأسماء التى تملأ كتب الأدب قد ماتوا جوعاً ، لأنهم ألفوا ما لم يفهمه أحد فى عصرهم ، [illegible] الجواهر إلى حراوة الفقر . هؤلاء ماتوا جوعاً ، وكان حقا عليهم أن ينتهوا إلى تلك النهاية [illegible] عزاء قليل لهم أن يقال عنهم بعد موتهم إنهم عظماء [illegible] كان أحد يجنى ثمرة من تقديسهم بعد الموت فهم تجار الكتب . هذا أمر بديهى .

وأما النصف الثانى من أصحاب هذه الأسماء ، فهو جماعة تسنموا الناس فى الحياة ، لأنهم كانوا تجاراً مهرة ، عرفوا كيف يبيعون للناس ، وكيف يضحكون على ذقونهم . وهؤلاء قد أنصفوا أنفسهم بغير شك ، ولست أثنى عليهم بالإعجاب والإكبار ، ولكنهم على أى حال لم يكونوا عظماء ، ولم يعبأوا بمثل هذه الألقاب السخيفة التى تخدع الأغرار . فقد انتقلوا من الحياة كما ينتقل الطفيليون من الولائم ، ثم خرجوا بعد أن أصابوا من أطايبها ، وهم مشيعون بالغيظ والسخرية . ولكنهم خرجوا أسعد خلق الله وأحسنهم وأطيبهم نفساً .

نسيت أن أذكر السبب الذى دعانى إلى كتابة هذه الكلمة اليوم ؟ فقد مر بى ولدى محيى ، وأنا جالس فى الحديقة عند الساقية ، وكان يقرأ فى قاموسه ، ولما قرب منى نظر إلىّ باسماً ابتسامة خبيثة ، ولكنها كانت حلوة فى خبثها ، وكان فى هذا اليوم رفيقاً بى ، فلم يحرج علىّ ، ولم ينشد لى شيئاً من محفوظه ولا من تأليفه . ولما بعد عنى جلست وحدى وتواردت على خاطرى هذه المعانى التى أثبتها فى هذه الكلمة . وبعد حين جاء صديقى أبو النور فجلس إلى جوارى وأخذنا نتحدث ، ومال بنا السمر إلى ذكر ولدى وما أرجوه له من عمل فى مستقبل أيامه ؟ فأفضيت إلى صديقى بما يساورنى من المخاوف من أجل ما أراه من حب هذه الصناعة التى يسمونها الأدب . فسألنى أبو النور فى سذاجة :

— وهل فكرت له فى صناعة أجدى عليه ؟ فاندفعت قائلا فى شىء من الغضب :

— ماذا تقول يا رجل ؟ لقد أصبحت أعلم بالحياة من ذلك [illegible] صناعة أخرى وكل تجارة غير هذه الحرفة أجدى [illegible] . فليكن طبيباً إذا شاء ، فإنه سيكون شيئاً له ثمن ، ولن يزاحمه إلا من كان له شىء من العلم بصناعة الطب ؛ فإن الناس يفتحون أعينهم ويسألون عن مبلغ علم الطبيب الذى يسلمون إليه أبدانهم ؛ أو فليكن فقيهاً ، فإنها تجارة رابحة رائجة ، ولن يزاحمه فيها إلا من كابد مشقة الحفظ وتحصيل العلم ؛ أو فليكن خبازاً ؛ فالناس لا يتحمسون بين الخبازين ، إذا لم يكونوا قادرين على صناعة الرغيف الطيب . فليكن أى شىء من هذا أو غير هذا ، لأنه عند ذلك يصبح صاحب حرفة محدودة معروفة ، لها قيود وعليها أسوار تحميها وتحصنها . ولكن لا يطلق به السفه أن يدخل برجليه إلى تلك الرحلة الجوالة التى يسمونها صناعة الأدب .

وقد نسيت وأنا أقول هذا القول ، فحسبت أننى أحدث نفسى ولا يسمعنى أحد ، ولكنى شعرت فجأة بقرصة فى ساعدى ، فتنبهت ، فإذا أبو النور يقول لى :

— أما تسمع ؟

فسكتُّ وتلفت حولى ، فطرقت أذنى صرخة مكتومة كأنها خارجة من بطن الأرض ، فقمت مع صاحبي مسرعين ، وجعلنا نركض باحثين عن مبعث الصوت في أنحاء الحديقة ، فلم نجد شيئاً ، وأنهكنا أجسامنا ، وعدنا مرة أخرى إلى الساقية بعد أن درنا بالحديقة كلها ، ووقفنا نلتقط أنفاسنا لحظة ؛ وهممت أن أسأل صديق عن رأيه في الأشباح التي ترتفع أصواتها في الليل هل يمكن أن تظهر في وضح النهار ؟ وإذا بالصراخ المكتوم ينبعث مرة أخرى كأنه يصعد من تحت أقدامنا . فنظرت إلى صديق قائلا :

— بسم الله الرحمن الرحيم !

ولكنى رأيته يذهب إلى فتحة البئر التي تحت الساقية ؛ فسرت وراءه ، وأطلقت رأسي ، فماذا رأيت ؟ [illegible] رأس ولدى عجيب فوق سطح ماء [illegible] يسند نفسه واضعاً يديه على الحائط [illegible] رجليه في الماء ، وسمعته يصيح :

— الوهس ! الوهس ! الوحى ! الوحى ! الجدار الصلصى يداعب كفى ، وسرات الماء يراود أقدامي !

وكان يريد الاستمرار ، فخشيت عليه وصحت به :

— اخرس ! ماذا الوهس وماذا الوحى ، وماذا يداعب ، وماذا يراود ؟

فرفع رأسه نحوى متحدياً وقال :

— لقد رأيت (الوهس) قبل سقوطي ، ومعناه الجرى السريع ، وأما الوحى فمعناه العجل ، وأما الجدار الصلصى الذى يداعب فهى عبارة رائعة نقلتها من الأديب الكبير .. وأراد أن يستمر فلم أجد بداً إلا أن صحت به :

— دع هذا وقل لى أين الحبل ؟ أين الحبل الذى كان هنا على فتحة البئر ؟

فلما أحس الولد الجد مني قال في انكسار :

— هو الذى انقطع بى وأغرقنى في قاع البئر ... وكاد يستمر لولا أنى صحت به مرة أخرى :

— اخرس !

ثم نظرت حولى لأجد شيئاً أنقذه به ، فوقعت عينى على عمامة صديق ، فأسرعت فنزعتها من رأسه ، وساعدنى الرجل الطيب على أن أرمها ؛ ثم دلّيناها إلى الولد حتى أمسك بطرفها ، وتعاونّا على رفعه حتى أخرجناه من البئر وهو مثل القط الغارق .

وأخذ صديق عمامته فنشرها وهو صامت ، وأخذت ولدى إلى البيت خوفاً عليه من إصابة البرد ، ودفعته إلى أمه قائلا :

— [illegible] أمره ، و[illegible] به حتى لا يُفجَعُ الجيل [illegible] في كبير أدبائه !

ورجعت إلى صديق فوجدته لا يزال يهز أطراف [illegible] أن تجف ؛ فداخلني إشفاق عظيم [illegible] :

— [illegible] لولا عمامتك لفقد كبير أدباء الجيل الثانى .

ثم لم أدر ماذا حدث ، ولكنى رأيت الضحك يغلبنى ، وكان ضحكاً طويلاً معدياً بلا شك ! فما مضت لحظة حتى كان أبو النور يضحك ضحكاً طويلاً مثله ، وهو لا يزال يهز أطراف عمامته بيديه لكى تجف .

طبق الأصل — مجا

نرجو من حضرات مشتركى مجلة الثقافة أن يبادروا بتسديد الباقى عليهم من اشتراكات سنة ١٩٤٣ بأقرب فرصة ممكنة .

الإدارة

مأساة بيير كورى[1]

مكتشف معدن الراديوم

بدأ يوم الخميس ١٩ أبريل ١٩٠٦ مكفهراً عابساً ممطراً . وكان برنامج بيير كورى اليومى يتلخص فى حضور مأدبة غداء فى مقر اتحاد أساتذة كلية العلوم بباريس ، ثم الذهاب إلى ناشرى كتبه لتصحيح بعض المسودات قبل أن ينتهى به المطاف كعادته اليومية إلى معهد الراديوم ليواصل أبحاثه .

ارتدى بيير ملابسه فى عجلة وأسرع نحو الباب ، وقبل خروجه نادى زوجته مارى — وكانت فى الطابق العلوى تساعد ابنتيها إرين وإيف على ارتداء ملابسهما — وسألها إذا كان فى نيتها الذهاب إلى المعمل ، فأجابته بصوت غلبت عليه ضوضاء الشارع : إنها لن تتمكن فى الغالب . ثم سمعت الباب يقفل بشدة ، وخطواته تجرى على عجل كعادته .

وقضى بيير فترة الغداء مع [illegible] بمطعم بشارع دانتون ؛ وفى الساعة الثانية والنصف [illegible] بالانصراف ، فودع أصدقاءه مبتسما ، وسار نحو الباب . ولما فتحه نظر إلى السماء المكفهرة فى تحفز ، ثم نشر مظلته الكبيرة ومشى فى أنداء السيل قاصداً دار جوتيه فيلار للطبع والنشر ، فوجدها مغلقة بسبب إضراب العمال ، فعرج على شارع « دوفين » الصاخب بضجيج عربات النقل وعربات الترام . وكان هذا الشارع مشهوراً بزحامه غير العادى ، وكان رصيفه ضيقاً بدرجة لا تسمح بمرور أكثر من صف واحد من المارة فى وقت واحد ؛ فكان بيير يسير أحياناً على الرصيف وأحياناً ينزل إلى عرض الشارع فى خطى مضطربة غير ثابتة ؛ ولعله كان فى ذلك الوقت يفكر فى إحدى تجاربه ، فكان يتخبط فى هذا البحر الخضم من الكتل البشرية والآلية . وإذ هو فى هذا الشرود الفكرى حاول أن يعبر الطريق للوصول إلى الرصيف الآخر ، فلم يلق بالاً إلى عربة نقل كبيرة يجرها حصانان آتية من الجانب الآخر ، فاصطدم بيير بأحد الحصانين ؛ ولما أفاق من دهشته حاول أن يتعلق بصدر الحصان ليتفادى الوقوع تحته ، ولكن الصدمة كانت أشد من أن تمكنه من ذلك ، ورغم محاولة السائق اليائسة إيقاف حصانيه ، فقد استمر الأخيران فى اندفاعهما ، وصاح عشرات المارة فى فزع أن « قف ! قف ! » ، ولكن هيهات ! فقد وقع بيير تحت سنابك الخيل .

ومرت عليه الخيل ، ولكنه لم يمس بأى سوء ، بل بقى فى مكانه لا يتحرك ولا يصرخ ؛ وكان يمكن للمعجزة أن تحدث وينجو بحياته ، لولا أن اندفاع العربة بحملها الثقيل البالغ ستة أطنان عجل بالنهاية المحزنة ؛ فقد صادفت العجلة اليسرى [illegible] عبر كؤود حطمتها بسهولة ، [illegible] كورى ! وتكسرت عظام الجمجمة ، [illegible] مادة رخوة هى مخ بيير كورى ! [illegible] رجال الشرطة يحملون الجثة الهامدة التى انتزعت منها الحياة فى أقل من لمح البصر ؛ وحاولوا إيقاف إحدى العربات لحمله إلى أقرب مراكز إسعاف ، ولكن كل السائقين أظهروا عدم اكتراث واستمروا فى سيرهم عندما رأوا أن جثة رجل غارقة فى دمائه وملوثاً بأوحال الطريق هى الحمل المنتظر ! ومرت الدقائق ، وأخذت الناس تتجمع حول الجثة وحول العربة وسائقها المسئول عن الحادث . وأخيراً أحضر رجلان نقالة ، وحملت الجثة إلى أقرب صيدلية لإجراء إسعافات غير لازمة ، ثم نقلت بعد ذلك إلى مركز الشرطة المجاور ؛ وهناك فحصت أوراقه وحافظة نقوده . ولما انتشر بين الجموع أن ضحية الحادث هو بيير كورى العالم الكبير ، ثارت الجماهير المتجمعة على السائق تريد الاعتداء عليه ، فاضطر رجال الشرطة إلى التدخل لحمايته من غضبهم .

وأخطرت كلية العلوم بالحادث تليفونيا ، فجرى إلى

(١) مقتبسة من كتاب « مدام كورى » تأليف إيف كورى . ويرجع لآل كورى الفضل فى اكتشاف معدن الراديوم النفيس الذى ثبتت فائدته فى علاج السرطان وأمراض أخرى مستعصية .

مكان الحادث المسيو كليرك ، مساعد المسيو كورى . وإنه لحفلة كان جثمان الفقيد مسجى فى غرفة متواضعة بمركز الشرطة ، وقد انحنى أمامها المسيو كليرك وهو ينتحب ، ووقف ما بين سائق العربة يبكى ، بينما بقيت العربة الثقيلة بحملها السكون من الملابس العسكرية عند باب المركز ، واستمر هطول المطر عليها حتى أزيل آثر الدماء من عجلاتها ؛ وأخذت الخيل تضرب الأرض بحوافرها وتنفخ بمناخرها فى قلق وخوف ، وكأنها تستعجل صاحبها الذى طال غيابه داخل المركز !

وهب مندوب من رئيس الجمهورية الفرنسية إلى منزل آل كورى ليبلغ الخبر وعزاء الرئيس إلى مارى كورى ، ولما علم أنها لم تعد إلى البيت بعد ، انصرف دون أن يترك رسالته . وبعد قليل دق الجرس مرة ثانية ، وإذا بالزائر جون أبيل عميد كلية العلوم والأستاذ [illegible] يجرى ؛ وكان الدكتور أوجين كورى — والد [illegible] — بالمنزل وحده ، فدهش لتردد هؤلاء [illegible] الأمد على غير عادة فى فترة وجيزة ، فتقدم [illegible] وقد [illegible] عينيه فى وجهيهما المكفهر ؛ وكان فى نية أبيل أن يخبر مارى زوجة الفقيد أولا ، فوقف صامتا عند ما علم بغيابها . ولكن الوالد مضى ينظر إليهما ، وبدون أن سألهما أى سؤال قال : « لقد مات ولدى . . . أليس كذلك » ؟ وعندها أخذ جون أبيل يسرد تفاصيل الحادث فى حزن ؛ وكان الوالد يستمع إليه وقد تقطب جبينه حزنا وغضبا ، وامتزجت فى عينيه دموع الأسى بدموع اليأس عند ما صاح منهما ابنه بشرود الفكر الذى كلفه حياته ، وأخذ يكرر فى لهجة العتاب : « يا ترى ماذا كنت تفكر !! » .

وفى تمام الساعة السادسة سمع صوت مفتاح الباب الخارجى يدور فى قفله ، وإذا بمارى كورى تعود من الخارج وهى ممتلئة مرحا وحيوية . ووقفت عند عتبة الباب تنظر إلى زائريها متعجبة لأمارات الحزن والكآبة البادية على وجوه الحاضرين ، وهى لم تعهد فيهم من قبل غير التوجس والخلخلة . وقبل أن تحاول استيضاح حقيقة الموقف أخذ جون أبيل يكرر على مسمعها تفاصيل الحادث ؛ وكانت تنصت إليه وقد تحجر وجهها ، فلم تبك ولم تولول ، ولم تسقط على الأرض من هول الصدمة ، بل بقيت صامتة فى ذهول ؛ وبعد صمت طويل انفرجت شفتاها وقالت فى صوت خافت : « بيير مات . . . حقا . . . ؟ » ، ثم أخذت تعيش شرعا ، وفى لهجة آلية طلبت أن يحضروا جثمان زوجها فى الحال إلى منزله ورفضت إجراء الصفة التشريحية ؛ ثم رجت جارتها مدام بيرين أن تستبقى ابنتها إيرين كورى عندها لبضعة أيام . وأرسلت برقية إلى وارسو لتخطر أهلها بمصابها ، وكانت البرقية قصيرة ونصها : « مات بيير نتيجة حادث » ؛ ثم خرجت إلى الحديقة وجلست وقد أسندت رأسها بين يديها ونظرت إلى الباب فى صمت وألم منتظرة وصول رفيق حياتها . . .

[illegible] أولا الأشياء التى وجدت فى جيب زوجها ، [illegible] وبضعة مفاتيح ، [illegible] وكانت تدق دقا متصلا . وفى الساعة الثامنة [illegible] عند الباب عربة الإسعاف ، فجرت مارى نحوها وتسلقتها ونظرت فى الظلام إلى الوجه الهادئ الطاهر ! ثم ساعدت على إنزال الجثة من العربة واستحرتها فى غرفة منعزلة ، وطلبت ممن حولها أن يتركوها وحدها مع حبيبها . ولما تم لها ما أرادت أخذت فى تقبيله ، فبدأت بوجهه ثم جسمه ثم يديه . وخاف من حولها عليها من أثر الصدمة وتقدموا نحوها يريدون إخراجها ليشرعوا فى إلباس الفقيد ملابسه الأخيرة ، فأطاعتهم فى مبدأ الأمر ، وخرجت من الغرفة ولكنها سرعان ما عادت ثانية وصممت على القيام بهذا ، حتى لا تسمح لأحد غيرها أن يمس رفاته الطاهر .

وفى اليوم التالى وصل جاك كورى شقيق الفقيد ، وعندها فقط انفجرت ينابيع الدموع من مآقيها المتحجرة ، وانطلقت تبكى بكاء مرا ، ثم استعادت هدوءها وسكينتها ، وبدأت تجوب فى المنزل سائلة إذا كانت ابنتها إيف قد

غسلت وجهها وتناولت طعام الإفطار ، ثم خرجت إلى حديقة منزل الأستاذ بيرين المجاورة ، وهناك وجدت ابنتها إيرين تلعب وتلهو ، فأخبرتها أن والدها قد أصيب في رأسه إصابة بالغة ، وأنه سيحتاج إلى راحة طويلة ؛ فمضت الطفلة في لعبها بدون أن تبدي أي اهتمام بما قالته والدتها .

وهنا نقتبس بعض مقتطفات من مذكرات مدام كورى وفيها تصف بقية هذا الموقف المؤلم :

« ... لقد وضعناك في تابوتك يا حبيبي في صباح السبت ، وقد ساعدت في هذا بأن أمسكت رأسك بين يدىّ ... رأسك الذى تحمله ... آه يا حبيبي كم قاسيت في تلك الصفحة المشؤومة التي مت فيها ... عز على أن يمس هذا الرأس الجميل الذى طالما أحببته بين يدىّ ... وكنت كلما حاولت تقبيل جبهتك أحسست عيناك في حركة عبوسة لتمكني من ذلك ... وعندما أودعناك في التابوت تهافتنا جميعاً على تقبيل وجهك المرة الأخيرة ، ثم أودعت نعشك صورتى التى كنت تحبها [illegible] الأخير ... وأخيراً قفل التابوت [illegible] الأبد ... ولما حاولوا تغطيته بقماش أسود [illegible] وغطيته بالأزهار التي كنت تحبها ، وجلست بجانبك حتى أتوا ليأخذوك مني ، فنظرت إليهم في يأس ولم أتكلم ، بل رافقتهم إلى نعشك الأخير . وهناك حاولوا إبعادى لكى لا أرى المنظر المؤلم ، وصممت على أن أبقى حتى الدقيقة الأخيرة ... حتى أنزلوك في تلك الحفرة العميقة ... وعندما انتهى كل شىء ، ذهب بيير إلى الأبد ..

وبعد الحادث بأيام كانت شقيقتها (برونيا) تتأهب للرحيل بعد أن قامت بواجب التعزية والمواساة ، فاقتربت منها مارى وأشارت إليها أن تتبعها غرفة نومها الخاصة ! وهناك دهشت برونيا إذ وجدت نار الموقد مشتعلة رغم حرارة الجو ، وبعد أن تأكدت مارى من أن الباب مغلقاً اتجهت نحو دولاب ملابسها وأخرجت حزمة من الملابس ، ثم جلست بجانب النار وطلبت من شقيقتها أن تجلس جنوبها . وأمسكت بمقص كبير وأخذت وهى تحاول فتح الحزمة قائلة : « برونيا ... يجب أن تساعدينى ... » . ولما أزالت الورق الخارجى كادت برونيا أن تصرخ من شدة الهول ، إذ تبين لها أن ما بالربطة لم يكن سوى ملابس بيير الداخلية والخارجية الملوثة بالدم والوحل نتيجة حادث شارع دوفين المشؤوم ... لم تنبس برونيا ببنت شفة ، بل أخذت تراقب يدى شقيقتها المرتعشتين وهما تقطعان الملابس إلى قطع صغيرة تلقيها في النيران حيث تحترق وتختفى . ولما صادفت مارى بقايا مخ زوجها العالقة بالملابس توقفت عن عملها ، وأدنت القماش من فمها ، وأخذت تقبل بحرارة تلك البقايا التى أخرجت في يوم ما للعالم أعظم الاختراعات وأبدع التفكير . وكانت تقبلها بيأس ظاهر ، فانتزعت برونيا منها المقص وبقية الملابس ، وأجرت عملية التقطيع بسرعة ، وقامت النيران المشتعلة بإزالة كل آثار الحادث الحزين ..!

ولما انتهى كل شىء ، جهشت مارى وألقت بنفسها بين [illegible] وأخذت في البكاء والنحيب ، وقالت متسائلة : « [illegible] كيف يمكننى أن أعيش بعد الآن ... وأنا وحيدة في هذا العالم . » ! فهدأت برونيا من [illegible] مشجعة ، وساعدتها على خلع ملابس النهار وارتداء ملابس النوم ، وبقيت بجانبها حتى استغرقت في النوم ..

ولكن مارى كورى لم تكن وحيدة ... فهناك أصدقاؤها وأصدقاء زوجها الكثيرون ... لقد هبوا جميعاً لمساعدتها والعمل على تعيينها في كرسى الأستاذية الذى خلا بوفاة زوجها . وكان هذا خارقاً للتقاليد في ذلك الوقت ، إذ لم يسبق تعيين سيدة في منصب أستاذ بجامعة السوربون ! ولكن الناس تغلبت أخيراً على هذه العقبة ، وتقرر يوم الاثنين ٥ نوفمبر سنة ١٩٠٦ كموعد إلقاء محاضرتها الأولى ؛ وكان المدرج غاصاً على سعته بالأساتذة والطلبة ومندوبى الجرائد وسيدات ورجال من جميع الطبقات ، وقد أتوا جميعاً ليشاهدوا « الأرملة العظيمة » وليس ليستمعوا إلى دقائق معدن الراديوم وفلسفته .

في مراشي «ضحى الإسلام»

النقيب أبو جعفر يحيى
ابن أبي زيد

كل من قرأ الجزء الثالث من كتاب «ضحى الإسلام» لشيخنا العلامة الأستاذ أحمد أمين بك ، مرّ في حاشية الصفحة الثانية والثالثة بالحديث عنه باسم [illegible] في كتب هذا العصر ، ولا متصل تاريخه فيما مضى من الأدب . من « النقيب أبو جعفر » ؟ وإليه أشار شيخنا مؤلف الضحى بقوله : « هذا مختصر من أقوال أبي جعفر النقيب ، حكاه بطوله ابن أبي الحديد (عز الدين عبد الحميد) في نهج البلاغة ج ٤ : ٤٤٥ وما بعدها » . ومن يرجع إلى مظنة ذلك من شرح نهج البلاغة يجد أن مؤلفه قرأ في خلال كلامه ما هذا نصه : « وحضرت عند النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي البصري سنة إحدى عشرة وستمائة ببغداد وعنده جماعة [illegible] لأبي الفرج [1] [illegible] عليه بعضهم وأبي شبه بعضهم [illegible]

(١) في المطبوع ٤ : ٤٤٣ [illegible]

وما يحفظ هؤلاء ظهورها كانت مارى وتقدة [illegible] قبر زوجها تتناجيه تصوت خافت ؛ ثم عادت إلى الجامعة ودخلت المدرج في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين ، فتبرأت الأعناق وتهامس الموجودون ، ثم دوت القاعة بالتصفيق حاد أجابت عليه مارى بإمالة خفيفة من رأسها ، وعادت إلى مكانه حدثت عنها عنف الأخيرة ؛ ثم عادت إلى الحاضرين في هدوء وبدأت محاضرتها بالكلمات الآتية :

« كلما فكرنا في التقدم المطرد الذي ظفرت به العلوم الطبيعية في السنوات العشر الأخيرة أدركنا التطورات التي طرأت على فن الكهرباء والمادة ... »

وهي الكلمات التي انتهى إليها بيير كورى في آخر محاضرة ألقاها قبل موته الفاجع ...

دكتور مصطفى الدرجاني

فالنقيب أبو جعفر بن أبي زيد البصري كان أستاذ ابن أبي الحديد وغيره من العلماء والأدباء ، وإذا كان القياس بين الأستاذ وتلميذه ، والفقيه وصاحبه ، والعالم وطلابه [1] يتخلل في حيز الإمكان ، ويؤدى في الأحيان إلى المقارنة بينهما والمساواة ، فلنا يعنى الغرض ما كان عليه شيخ ابن أبي الحديد من الاتساع في الأدب والفقه والكلام والأخبار والأنساب ، وسعة الرواية وبراعة الدراية ؛ لأن شرح نهج البلاغة دائرة معارف ، ورياض آداب ، وكنوز أخبار ، ومركز بلاغة ، ومعين مختصر اتب ، ومظنة ثقافة إسلامية وعربية ؛ وقد لمك نعت أنه أحسن كتاب [illegible] الدولة العباسية في آخر عصورها ، وأكمل شرح لذلك الكتاب القيم ، أعني نهج البلاغة معجزة العربية .

[illegible] هذا النقيب أبو جعفر يحيى بن أبي زيد ؟ [illegible] [illegible] الأدب الأخبارى النسابة التي كانت دارة [illegible] الأدباء والفضلاء ، والطالبين لقراءة كتب [illegible] الذي كان حيًا في سنة ٦١١ هـ [illegible] بين الثقافة والدين والسياسة [illegible] لا عازمون على أن يبسط القراء [illegible] الكلام في ترجمة هذا الرجل الكبير الإمام الخطير ، وفي عصره الذي ازدهر في كل أسباب الحياة والعلوم ؛ وسيجد القارئ بعض معرفة الثقافة الإسلامية العربية في العصور المتقدمة ، ما يدعو إلى الفوائد استنباطًا ، وإلى الاطلاع اغتباطًا ؛ ولسنا نعني بالمتقدمة إلا قلة الاطلاع عليها ، وندرة التحدث بأخبارها وأسرارها ، فنحن مختصون بتاريخ العراق ومحققون لتراجم الناس من رجاله ، ونرى خدمة عظيمة للثقافة العربية الإسلامية في الإبانة عن حقيقة ذلك الفهامة العلامة ، الذي كان ركنًا من أركان المعارف في القرن السادس وأوائل السابع .

هو شريف الدين أبو جعفر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد [2] العلوي الحسني البصري المعروف بابن أبي زيد ، نقيب

(١) الصاحب والتلاميذ غير التلاميذ والفقه والعلم ، والفقه قبل صاحبه أبي حنيفة ، وتلاميذ الخلال .

(٢) أي أربع مرات .

البصرة ، ابن نقيبها الأديب الشاعر الأخبارى البارع ، الراوى الثقة . وُلد بالبصرة فى خلافة أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقرأ فيها الأدب على أبى محمد بن الأحمر[1] الحلبى ؛ وسمع الحديث النبوى كالذى فى سنن الدارمى من أبيه أبى طالب محمد بن على نقيب البصرة ومن غيره ؛ ووافق زمانه أعظم خليفة عباسى فى العدل والسياسة والديانة ، والعلم والقوة والتدبير وعلو الكلمة ، وهو أمير المؤمنين أبو العباس الناصر لدين الله . وقدم بغداد سنة توليه الخلافة — أعنى سنة ٥٧٥ هـ ، فمدحه بقصيدة لامية يقول فيها :

وليتَ وعامُ النـاسِ أحمرُ ماحلٌ
فعمّهمُ وجادَ الغيثُ فالقطرُ مخضلُ
وكم لك من نعماء ليسَ تعدُّها
لها حاسبٌ إلا إذا حُسبَ الرملُ[2]

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى ، وهو أحسن من ... بعد ابن أبى الحديد ممن رأينا له تواليف ... رقيق الشعر مليح النظم ، وأجاز ... وهو القائل هذا المقيل وهذا الجزع والبان

فاحبس[3] على ضيه أوطار وأوطان
آليتُ — والحرُّ لا تُلوى أليّتُه —
ألا تذوق طيب النوم أجفانى

حتى تعود ليالينا التى سلفت بالأجرعين وجيران كما كانوا
يا حبذا شجر الجرعاء من شجر وحبذا روضه الخضل والبان

إذا النسيم سرى مالت ذوائبه كأنه الغصن الممطور سكران
فتنسم فى الأغصان ... والحمام على الأفنان أعوان
وبارق لاح والظلماء داجية والنجم فى الأفق الغربى حيران
هبات تنكرنى ... على أنهم ... وأحزان
كتمت حبك والأجفان تظهره وليس للحب عند العين كتمان
لاورت بالقلب فى الأحشاء نار جوى وقد جرت بشقيق العين غدران[1]

ذكره المؤرخ المذكور فى وفيات سنة ٦١٣ هـ ، ونقل قوله أبو شامة فى « ذيل الروضتين » ، والإمام شمس الدين الذهبى فى تاريخ الإسلام ، وقال : « وكان عالما بالنسب والأخبار وأيام العرب ، وله شعر رائق[2] » ، ونقل ... من كتب هؤلاء ابن تغرى بردى[3] . وذكروا أن وفاته كانت ببغداد فى شهر رمضان من السنة ... ودفن ... مقابر قريش ، وهى مقبرة الإمام موسى ... المعروفة اليوم ببلدة الكاظمية .

والظاهر أنه قدم بغداد غير مرة حينما كان يسكن بالبصرة ، فقد ذكر ... أنه قدمها متظلما من ناظر البصرة فى وزارة مؤيد الدين أبى المعالى سعيد بن على بن أحمد ... الأنصارى الحنفى المعروف بابن حديدة ، وكان تولى الوزارة لأمير المؤمنين الناصر لدين الله سنة ٥٨٤ هـ ؛ وأنشد هذا النقيب وزير الخليفة قصيدة من جملتها قوله :

وقبائل الأنصار غير قليلة لكن بنو ... هم الأخيار
منهم أبو أيوب حلَّ محمد فى داره واختاره المختار
أنا منه فى النسب الصريح وأنت من ذاك القبيل على بذاك سوار
ولقد نزلت عليك مثل نزوله فى دار جدك والنزيل يُجار
صلى الإله على النبى محمد وعلى أبيه ورهطه الأنصار

(١) كذا ورد فى « مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان » لأبى المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزى « ص ٤٨٩ » من طبعة شيكاغو سنة ١٩٠٧ ، وورد بصورة : « أبى على بن أحمد الحلبى » فى « ذيل الروضتين » لأبى شامة ، مخطوط رقمه ٥٨٥٢ من دار الكتب الوطنية بباريس ورقة « ١٧٠ — ٨ » وأبو شامة نقل عن السبط ، وفى ... للمستنصرية لعلى بن أبى الفرج البصرى ، مخطوط رقمه ٦١٤٤ ورقة ١٢٧ من دار الكتب الوطنية بباريس . (٢) ومختارة الذهب المسبوك لعبد الرحمن الإربلى ص ٢٠٠ من طبعة بيروت سنة ١٨٨٥ .

(٣) فى الأصل زيادة « فوصله » . وذيل تاريخ بغداد لأبى عبد الله محمد بن سعيد بن الدبيثى الواسطى . مخطوط رقمه ٢١٣٣ ورقة ٥ من نسخة دار الكتب الوطنية بباريس .

(١) مختصر المجلد الثامن من مرآة الزمان المذكور .

(٢) تاريخ الإسلام ، مخطوط برقم ١٥٨١ ورقة ٢٠٩ من دار الكتب الوطنية بباريس . (٣) النجوم الزاهرة ج ٦ سنة ٦١٣ من طبعة دار الكتب ، والمخطوط المرقوم ١٧٧٣ ورقة ٩٦ من دار الكتب الوطنية بباريس .

فلما سمعها الوزير ابن حديدة رق له وبكى ، وخلع عليه ووصله ، وقضى حوائجه وأنصفه من ناظر البصرة وعزله(١) . فما كان أعظمها نقيبا ومشكيا ، ومستجيرا ومجيرا ، ونقيبا ووزيرا ! ونجد في الأخبار الأدبية ومجاميع الأشعار أن النقيب أبا جعفر بن أبي زيد تشرف بالحضور في حضرة الإمام الناصر لدين الله في ليلة من الليالي ، والتجمل بمحادثته ولو قليلا ، وأن مقرب البحراني العيوني الشاعر المشهور يشير في شعره(٢) إلى أن أحد أرباب دولة الناصر لدين الله المكنى بأبي علي الملقب بأبي علي المعروف بابن الهواري ، كان سببا في توصل النقيب شرف الدين أبي جعفر يحيى بن أبي زيد إلى الخليفة المذكور وتشرفه بالحضور . ويظهر لي أنه أبو علي الحسن ابن هبة الله بن الحسن ، وكان أحد الأعيان الفضلاء ، تولى للناصر لدين الله حجابة الحجاب ، ثم صدرية [illegible] مع كوزارة النائبة مع وزارة الخوص ، ووكالة الخليفة [illegible] في أمواله الخاصة ، وتوفي سنة ٦١٦ (٣) [illegible]

بين يدي الناصر لدين الله أجتليه

ليالي هند كليلة موسى ... [illegible] الأعلى الطاهر

لم يكن حوله نكوص ولا أمر ... [illegible] الأنس مثل سروري(٤)

يذكره مكررا في ديوان ابن مقرب العيوني ، ففي ص ٩٧ منه ما هذا نصه : « وقال وقد اقترح عليه يحيى النقيب بن أبي الحسين بن أبي القاسم علي بن أبي العباس محمد بن أبي زيد العلوي الحسني ، وقد عرض عليه منهما عقيقا أبياتا من الشعر ، فأنشأ هذه القصيدة » ، وذكر الشارح القصيدة وفيها يقول :

جزى الله تاج الدين خيرا فإنه ... به تدفع الحسنى وتكفى النائبات

مشيرا إلى تاج الدين إسماعيل النقيب أبي جعفر المذكور(٥) ، ومنه نعلم أنه خلف من المذكور .

وقد قرأ كثير من الأدباء والأخباريين كتب الأدب والأخبار والنسب كالأغاني والمنازي وعمدة النسب على الشريف أبي جعفر المذكور .

وأكثر الفضل في بيان مقالات أبي جعفر وأقواله وآرائه هو لتلميذه ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة المذكور ، فإنه حفظها في كتابه مرة في المعنى ومرة في اللفظ ، وأخرى فيهما معا ، وضمّها بعضها إلى بعض أو اختصارها أو اقتصارها يدل على ما يسمونه بروح ذلك العصر الدينية والاجتماعية . قال ابن أبي الحديد في نقله خبر وفاة النبي (ص) واختلاف الناس وقول الحباب ابن المنذر : « نخاف أن يلي الأمر بعدكم من قتلنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم » ، ما هذه صورته : « قرأت هذا الخبر على أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي الحسني (كذا) المعروف بابن أبي زيد نقيب البصرة — رحمه الله تعالى — في سنة عشر وستمائة من كتاب السقيفة لأحمد بن عبد العزيز الجوهري ، قال : لقد صدقت فراسة الحباب ، [illegible] الحرة ، وأخذ من الأنصار ثأر [illegible] ثم قال لي — رحمه الله — : ومن هنا جاء أيضا خوف رسول الله (ص) على ذريته وأهله ، فإنه كان عليه السلام قد وتر الناس وعلم أنه إن مات وترك ابنته وولدها سوقة ورعية تحت أيدي الولاة كانوا بعرض خطر عظيم ، فما زال يقرر لابن عمه قاعدة الأمر بعده حفظا لدمه ودماء أهل بيته ، فإنهم إذا كانوا ولاة الأمر كانت دماؤهم أقرب إلى الصيانة والعصمة ، مما إذا كانوا سوقة تحت يد وال من غيرهم ، فلم يساعده القضاء والقدر ، وكان من الأمر ما كان ، ثم أفضى أمر ذريته إلى ما قد عرفت »(١) . وهذا يدل على أن أبا جعفر بن أبي زيد كان شيعيا إماميا في العقيدة ، يؤمن بالنص على خلافة علي بن أبي طالب . ونقل عنه تلميذه ابن أبي الحديد أيضا في أثناء شرح النهج ما يؤكد مقالته ، قال : « وسألت أبا جعفر يحيى بن محمد العلوي نقيب البصرة وقت قراءتي عليه ... وكان رحمه الله — على ما يذهب إليه من مذهب العلوية — منصفا وافر العقل : فقلت : من يعني (علي) بن

(١) الفخري لابن الطقطقي ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ من طبعة المطبعة الرحمانية ١٩٢٧ . (٢) ص ٤٤ من طبعة بالهند . (٣) ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي ، مخطوط ورقة ٢٩٧ ، وص ١٢٣ من نسختنا المخطوطة . (٤) القطعة المذكورة ذ ورقة ٤٣ . (٥) الديوان ص ٤٦٢ .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ : ١٢٣ .

أبي طالب) عليه السلام بقوله : « كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين » ؟ ومن القوم الذين عناهم الأسدي بقوله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به . هل المراد يوم السقيفة أو يوم الشورى ؟ فقال : يوم السقيفة . فقلت : إن نفسي لا تسامحني أن أنسب إلى الصحابة عصيان رسول الله — ص — ودفع النص . فقال : وأنا فلا تسامحني أيضاً نفسي أن أنسب الرسول — ص — إلى إهمال أمر الإمامة ، وأن يترك الناس فوضى سدى مهملين ، وقد كان لا يغيب عن المدينة إلا ويؤمّر عليها أميراً ، وهو حيّ ليس بالبعيد ، فكيف لا يؤمّر وهو ميت ... »[2].

وكان لابن في كتابه يصف النقيب أبا جعفر بالإنصاف ، فهو حيث استعظم مدح [illegible] أبي طالب [illegible] استعظام المستحسن ، قال : « سألت النقيب [illegible] — رحمه الله — وكان منصفاً جداً من الهوى [illegible] عن هذا الموضع فقلت له : [illegible] وخطيب ، فلأن فيهم من حفظ [illegible] نعظم هذا الرجل (ع) ولا [illegible][1] إقدام المؤالف [illegible] بتعليل النقيب [illegible] [illegible] ليواطئ الأمور الحالي لتشكيكات الأحداث .

وإذا كان لكل مؤرخ قول أو حكم ، لم يسعنا إلا وصف النقيب أبي جعفر بالإنصاف والاعتدال والاقتصاد في اختيار الأقوال ، وقال ابن أبي الحديد بعد نقله أخبار المنازعة بين الرسول — ص — وعلي بن أبي طالب وأحوالهما : « وكان النقيب أبو جعفر — رحمه الله — غزير العلم ، صحيح العقل منصفاً في الجدال غير متعصب للمذهب ، وإنه

كان علوياً ، وكان يعترف بفضائل الصحابة ويثني على الشيخين ويقول : إنهما مهّدا دين الإسلام وأرسيا قواعده ، ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله — ص — وإنما مهّداه بما تيسر للعرب من الفتوح والغنائم في دولتهما . وكان يقول في عثمان : إن الدولة في أيامه كانت على إقبالها وعلو جدّها ، بل كانت الفتوح في أيامه أكثر ، والغنائم أعظم ، لولا أنه لم يراع ناموس الشيخين ولم يستطع أن يسلك مسلكهما ، وكان مستهيناً[1] في أصل القاعدة ، مغلوباً عليه وكثير الحب لأهله ، وأتيح له من مروان وزير سوء أفسد القلوب عليه ، وحمل الناس على خلعه وقتله . وكان أبو جعفر — رح — لا يجحد الفاضل فضله ... وكان لا يعتقد في الصحابة [illegible] أكثر الإمامية فيهم ، ونسبه رأي من [illegible] إلى النفاق والتكفير ، وكان يقول : حكمهم [illegible] في بعض الأعمال وخالف الأمر ، [illegible] أخذه وإن شاء غفر له . قلت له [illegible] أهل الجنة ؟ فقال : أي والله [illegible] في ذلك أصلاً ولا أشك في [illegible] رسول الله — ص — وصحة عقيدتهما . فقلت له : فعثمان ؟ قال : وكذلك عثمان . ثم قال : رحم الله عثمان ، وهل كان إلا واحداً منا ، وغصناً من شجرة عبد مناف . ولكن أهله كدّروه علينا وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا »[2].

ونحن قد عجبنا من قول ابن أبي الحديد في أبي جعفر : « ولم يكن إمامي المذهب ، ولا كان يبرأ من السلف ، ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة ، ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بيني وبينه ؛ على أن العلوي لو كان كرامياً لا بد أن يكون عنده نوع من تعصب وميل على الصحابة وإن قل »[3]. فقد قدمنا قوله فيه : « وكان

(1) المرجع المذكور ٢ : ١٢٢ — ٧٢ وتلخيص كلامه هذا ، وهو من أحسن ما قاله أئمة الإمامية للاستدلال على النص في الإمامة ودفع الإهمال والإغفال . والفرق بين كلام أبي جعفر النقيب وغيره من الإمامية أنه حلل الأمور تحليلاً اجتماعياً ووصفها حسب القوم والعادة والطبائع والغرائز والأخلاق والرجال والديانات والمذاهب . وهذا كله الأسلوب الحديث المحقق ، وورد لها كلام يشبهه في ٢ : ٤٤٦ من الكتاب .

(2) المرجع المذكور ٢٠ : ٢٢٠ .

(1) في المطبوع « متصفاً » ، وهو تشكيل النقاد على معتقده صحيفاً وتخصها منسوبة إلى المذهب ، والاستضعاف أقوى منهما هنا .

(2) شرح نهج البلاغة ٣ : ٤٧٦ — ٤٠٧ .

(3) نفسه ٣ : ١١٨ .

لا يعتقد في الصحابة ما يعتقده أكثر الإمامية فيهم ، — ولو لم يكن من الإمامية — لكانت الإشارة بإيراده ولكنه باطلة ! ألا ترى أنك لا تقول في وصف عمران بن حطان الخارجي القعدي : « كان لا يعتقد اعتقاد الشيعة » لبروده وخروجه عن مقتضى الموضوع .

أما الكلام الذي نقل نزراً منه شيخنا العلامة الأستاذ أحمد أمين بك في الموضع المذكور من ضحى الإسلام لم يكن من كلام أبي جعفر النقيب بل كان من كلام بعض الزيدية ، والدليل على ذلك قوله : « قال أبو جعفر — رح — قد كنت منذ أيام علقت بخطي كلاماً وجدته لبعض الزيدية في هذا المعنى نقضاً ورداً على أبي المعالي الجويني فيما اختاره لنفسه من هذا الرأي ، وأنا أخرجه إليكم لأستغني بتأمله عن الحديث على ما قاله هذا الفقيه ، فإني أجد ألماً يمنعني من الإطالة في الحديث لا سيما إذا خرج مخرج الجدل ومقاومة الخصوم . ثم أخرج من بين كتبه كراساً قرأناه في ذلك المجلس واستحسنه الحاضرون ، [illegible] : [illegible] تعالى أرشده ... [illegible] .

وهذا يثبت أن النقيب أبا جعفر [illegible] الثقات الأثبات وصادق الرواة ، لأنه كان يرجع إلى أصول معروفة وكتب منسخة وتقاييد محررة ، على القدماء كانوا يقولون : حدثنا فلان وفلان أو حدثنا فلان قول أو يشد ، أو حكى عن فلان . وربما صرح به المحدثون الصادقون أنهم كانوا لا يحدثون إلا من كتاب ، وكذلك فعل النقيب أبو جعفر في إخراج قصيدة أبي القاسم علي بن الحسين المغربي الوزير الأديب الكبير الشاعر المقتدر ، وهي قصيدة نادرة في موضوعها تدل على بقية من العصبية العربية الجاهلية العمياء في القرن الرابع وأوائل الخامس للهجرة ، وهو عهد اضمحلال المروءة واختلاف المذاهب اختلافاً إيجابياً مبنياً على النقض والرد والمناظرات والمقابلات . قال ابن أبي الحديد : « وحدثني أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد[2] العلوي نقيب البصرة ... »[3] . وذكر قدوم أبي القاسم المغربي من مصر إلى بغداد واستكتاب شرف الدولة أبي علي بن بويه له وهو يومئذ سلطان الحضرة وأمير الأمراء ، والقادر بالله خليفة . ثم قال : « قال أبو جعفر : وكان أبو القاسم المغربي ينسب في الأزد ويتعصب لقحطان على عدنان ، وللأنصار على قريش ، وكان غالياً في ذلك مع تشيعه ... فاتفق أن حصل بيد القادر كتاب بخطه فيه مجموع قد جمعه من خطه وشعره وكلامه ... فوجد القادر في ذلك المجموع قصيدة من شعره فيها تعصب شديد للأنصار على المهاجرين حتى خرج إلى نوع من الإلحاد والزندقة ، وفيها تصريح بالرفض مع ذلك ... وكنت رغبة أسأل النقيب أبا جعفر عن القصيدة وهو يدافعني بها حتى أملاها علي بعد حين ... »[1] . والأرجح أن الإملاء لتلك القصيدة كان من كتاب على عادة هذا الشريف العلامة الحصيف [illegible] في هذه الأمور .

و[illegible] مع الذوق في الشعر ودقيق الإحساس بلطائفه [illegible] الرواي فيه . قال ابن أبي الحديد : « [illegible] محمد بن أبي زيد العلوي البصري [illegible] امرئ القيس ، والشعر [illegible] وما وجدته في ديوان النابغة قصيدته التي مدح بها النعمان ابن المنذر وذكر مرضه ويعتذر إليه عما كان اتهم به وقذفه به أعداؤه وأولها :

كتمتك ليلاً بالجمومين ساهراً
وهمين هماً مستكناً وظاهراً[2] »

وذكر القصيدة إلا البيت الأخير منها ، قال : « فجعل أبو جعفر — رح — يرتج ويطرب ثم قال : والله لو مزجت هذه بشعر البحتري لكانت تمزج بسهولتها وسلامة ألفاظها وما عليها من الديباجة والرونق ، فمن يقول : إن امرأ القيس وزهيراً أشعر من هذا ؟ علوا في عليها كوني[3] » . وكان للنقيب أبي جعفر علم بجوهر القصيد وعلمه ابن علي بن أبي طالب ، حتى لقد قال ابن أبي الحديد في ذكره الأشعار الواردة في الآلاء : « وسمعت

(1) ذلك ٤ : ٦٥٠ — ٦٦ . (2) في الأصل المطبوع « ابن زيد » وهو غلط . (3) شرح نهج البلاغة ٢ : ٣٦٤ .

(1) المرجع المتقدم ذكره . (2) راجع الديوان في « ... » من طبعه مطبعة السعادة . (3) المرجع المذكور ٤ : ٥٠٠ — ٥٠٠ .

الزمام

لحضرة صاحب العزة الأستاذ محمد رمزي بك

الزمام كلمة عربية لها معانٍ كثيرة ، أنسبها لموضوعنا هذا أن « زمام الأمر قوامه وما يضبط به » ، في تحديده على وجه الدقة ، وبيان مقاديره وتوضيح معالمه ، وهذا ما تقصده الحكومة من الزمام ، إذ تضبط الأرض وتحددها ، وتثبت ذلك في دفاترها الرسمية المرجوع إليها عند الحاجة .

وكلمة الزمام حديثة الاستعمال في الاصطلاحات المساحية في مصر ، إذ أنها لم تستعمل إلا من سنة ١٨٩٩ ، وهي السنة التي بدئ فيها بعملية فك الزمام المشهورة .

وكانت الدفاتر المحصور فيها الزمام لغاية سنة ١٨٩٨ هي الدفاتر التي تسمى المكلفات في الدواوين . فلما أنشئت مصلحة المساحة بقرار من مجلس النظار [illegible] ١٨٩١ ، قامت هذه المصلحة بعملية [illegible] القطر المصري في المدة بين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩٠٦ ، [illegible] الأراضي من جديد في خرائط وحصرها في دفاتر مساحية جديدة ؟ ومن ذلك الوقت أصبحت كلمة الزمام تطلق على ما هو مثبت من الأراضي في تلك الدفاتر ، وهذا يناسب ما شرحناه من معنى كلمة الزمام .

ويتكون زمام كل ناحية من مجموع الأراضي المحصورة في دفتر مساحتها ، وكل زمام يتكون من ثلاثة أنواع من الأراضي وهي : (١) الأراضي ملك الأهالي المربوط عليها الأموال . (٢) الأراضي ملك الحكومة . (٣) الأراضي المخصصة للمنافع العمومية على اختلاف أنواعها . ويقال كذلك زمام الحوض أي مجموع مساحة أطيانه .

فك الزمام

فك الزمام كلمة عربية حديثة الاستعمال في مصر ، المقصود منها حل قيد المساحة القديمة للأراضي المقيدة في دفاتر المكلفات ، وإجراء عملية مساحة جديدة على جميع الأراضي المصرية بالطرق الهندسية الحديثة ، مع تحديد مساحة ما في حيازة كل مالك من أرض في كل قرية ، وإظهار [illegible] المحرر في وضع يد كل مالك ، وذلك [illegible] من الأراضي [illegible] في المساواة .

أما [illegible] الرسمية التي ورد فيها كلمة « فك [illegible] ، هي : الأمر العالي الصادر في ٢٣ شوال سنة ١٢٨٠ هـ = ١٨٦٤ م ، وبأن « لا يفك [illegible] ، وكذلك الأمر العالي الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ هـ = ١٨٦٦ م بالتصريح « بفك زمامه » أي إلغاء عقد الاقتصاد بغير توقف على صدور أمر عالٍ . ولما أنشئت مصلحة المساحة في سنة ١٨٩٨ ، كما

الذهب لما زيد يحيى بن أبي زيد العلوي النصري بقوله « كأن أبيات أبي تمام في محمد بن عبد الطائي [illegible]

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده
إليه الحفاظ المر والخلق الوعر (١)

وذكر [illegible] أبيات . وأمثال هذا التقدير [illegible] كثيرة لا يمكننا سردها في هذا المكان . على أننا نذكر أمراً مهماً في تاريخنا الإسلامي ، هو أن نعلم أن الثقافة بأنواعها وضروبها حتى الأدبية والشعبية منها كانت تتطور وتتحول وتتبدل بحسب أهواء الخلفاء والسلاطين والملوك (١) ، وكثير من العلماء والأدباء والفقهاء والمؤلفين ، كانوا يصبغون ما عندهم بصبغة حكام زمانهم ، مما يثبت أن للدار والحاكم والسلطان تأثيراً عظيماً في مناحي الثقافة وألوانها وأطوارها . وإذا وجدنا في هذا العهد ما نسميه حرية البحث والإنصاف في الجدال والاعتدال في المناظرة والتساهل بين الطوائف بعضها مع بعض ، وجب أن نعزو أكثر ذلك إلى عهد الإمام الخليفة الناصر لدين الله العباسي .

(بغداد) دكتور مصطفى جواد

(١) عالم ٥ : ٣٠٢ .

(١) ومن هنا قولهم « الناس على دين ملوكهم »

صور أدبية :

نفـــاق . . .

بين أرباب الأدب جماعة منافقون يحلو لهم أن يظهروا على ألسنتهم غير ما تسر قلوبهم . والنفاق المجرد — بمعنى مخالفة الظاهر للباطن — لا يعد في ذاته خيراً أو شراً ؛ وإنما ينصاف إلى إحدى هاتين الخلتين بالنظر إلى بواعثه وإلى مضاعفاته جميعاً . ومن ثم كان النفاق في الدين شراً ما بعده شر ؛ إذ باعثه الاستهزاء بأمر الله ، وابتغاء الكيد للمؤمنين ، وتفشي الأذى لهم ، ونتيجته الكفر في أشنع صوره ، مقروناً إليه الكذب والخديعة وإبلاغ المكروه لكل مؤمن ، إلا أن يحمى الله من تلك أولياءه .

والنفاق مع الخالق أبلغ في الشر من النفاق في معاملة الناس ، متى اتصل بهذا الأخير شرط إرادة الكيد وقصد الإضرار والأذى . وبقدر تفاوت [illegible] ملابسته للبواعث والنتائج تتفاوت [illegible] فقد نشاهد النفاق الذي يحمل من النفاق اسمه [illegible] إثمه — كمن يظهر السرور لطفل باجتيازه اختباراً تافهاً — مثلاً — وهو خالي النفس من كل ما يظهر ، سوى قصده مسرة هذا الصغير ، وابتعاث دواعي النشاط والهمة عنده .

بل مالنا نذهب بعيداً والكذب نفسه أحوال يتجاوز فيها حد الحرمة إلى مرتبة الجواز أو الوجوب ، كما تشير إلى ذلك قوانين الأخلاق ونصوص قواعد الشرع !

ونعود إلى نفاق الأدباء فنقول : إنهم أقدر من غيرهم على ولوج هذا الباب بما أوتوه من بسطة في اللسان ، وقدرة على التأثير والانفعال ، وإحاطة تامة بوجوه التصرف في مناحي التفكير والتعبير . وكما يرتفع الأديب على سائر الناس بقدرته على إبراز المعاني المكنونة وإجادته التعبير عما [illegible] في الخاطر المضطرب ، يرتفع عليهم أيضاً بقدرته [illegible] في هذه المعاني والخطرات أو التخفيف منها ؛ [illegible] وقدرته على التعبير عن طبيعة جوهرها ... وسلاسته في [illegible] البلد الذي ينافق فيه : فيظهر معنى [illegible] دقة لسانه من منطوق الآراء [illegible] من مفهومها .

ذكرنا ، أصدر مديرها تعليمات إلى لجان المساحة تحت عنوان أعمال لجان مساحة فك الزمام ، وأن من واجباتهم فك زمام الأراضي الداخلة في حدود كل بلدة عن حدها .

ومن ذلك الوقت أصبحت كلمة « فك الزمام » مستعملة عند إعادة عملية مساحة أطيان أي بلدة أو مديرية في أي وقت .

خارج الزمام

خارج الزمام هي كذلك كلمة عرفية حديثة الاستعمال في مصر ، تطلق على جميع الأراضي ملك الحكومة التي لم يسبق حصرها في دفاتر المساحة السابقة ، ولم تدخل في زمام البلاد قبل إنشاء مصلحة المساحة .

وتلك الأراضي هي المعروفة بأراضي السباخ والملاحات ، والأراضي الرملية والبرك المجاورة للصحراء وظواهر الجبال ، وكذلك أراضي البراري والمستنقعات القريبة من شواطئ البحيرات .

وأقدم مصدر رسمي ذكر فيه كلمة « خارج الزمام » ، هو المادة الرابعة من الأمر العالي الصادر في ٣ فبراير سنة ١٨٩٢ ، الخاص بربط الضرائب على الأطيان التي تبيعها الحكومة .

ولما قامت مصلحة المساحة بعملية فك الزمام السابق ذكرها ، حصرت جميع الأراضي التي ذكرنا أنواعها في خرائط مساحة البلاد وفي دفاترها ، وأضافتها إلى زمام البلاد المجاورة لها باسم أراضي البرى .

وبهذه العملية لم يبق اليوم من الأراضي القابلة للإصلاح والزراعة في مصر أرض يقال لها خارج الزمام ، لأنها حصرت كلها في دفاتر مساحة النواحي في أحواض خاصة بها .

محمد رمزي

ولا يغنينا هذا التفصيل عن ضرب المثل لتبين فيه حقيقة ما ذكرنا ... ولعل نموذجنا هنا ومضرب مثلنا شاعراً من أرداف الملوك وأحلاس قصور الخلفاء والسلاطين ؛ إذ التماس النفاق عند مثله أقرب ، وتطلب الصورة الكاملة من ذلك في شعره أيسر على من أراد ..

وليكن شاعرنا هذا أبو عبادة البحترى نديم المتوكل ونجى الفتح ، وربيب نعم الأقيال من آل طاهر وآل حميد وآل المدبر .

ولست أفرد البحترى بالكلام لأنه أكثر عندى نفاقاً من غيره ، بل لأنى وجدت المثل الذى أتممه كاملا عنده فى مرثية له — من أوائل شعره — صور فيها النقمة بصورة النعمة ، وألبس الخطب الباكى ثوب الغبطة البهيج ..

هذا أبو القاسم بن حميد الطوسى قد حلس مجلس العزاء فى ابنة له متوفاة ؛ وبان على وجهه ... من الجزع على فقدها ، ورق قلبه وفاضت من حر الأسى ما يشفه من فراقها . وهنا ... وعزائه ومواساته فينشد :

ظلم الدهر فيكمو وأساء ... صبراً يا بنى ...

ولا يسلك البحترى فى هذه المرثية سبيل الشعراء من أصحاب المراثى ؛ بل هو يأخذ فيها بأسلوب جديد من أساليب التعزية فيه تكلف وفيه نفاق .. إنه يلم فى تعزيته لأبى القاسم أمر النسوة جميعاً ، ويهون عنده من شأنهن تهويناً بالغاً ، ويتظاهر بعظم كراهيتهن تظاهراً يخاله معه مسروراً بفقد هذه الابنة ، وأنه لم يأت معزياً كسائر الناس ، وإنما جاء ليقنع أباها الثاكل بأحقيته فى إظهار هذا الشعور ، وليحمله على اعتناق مذهبه فى ذلك أعنف الحمل . ولعمرى إن هذا لهو التكلف الممقوت فى العاطفة وفى الفكرة وفى الأسلوب جميعاً ، والنفاق المفضوح فى إظهار شعور عام نحو النساء ، ليس فى قلب الشاعر — ولا فى قلب عاقل أديب — منه أثارة ...

ولنأخذ هنا باستعراض جانب من القصيدة تبين على ضوئه خطل تفكير البحترى فيها .. إنه يبادر بعد المطلع بالإشارة إلى هذه الحروب التى رفعت لآل حميد فى البطولة ذكراً خالداً ، والتى أجزلتهم إلى جانب ذلك ضحايا الأمجاد فى ساحات الجلاد ، وخطت من السيف دماءهم التى تطيح به رءوس (رجالهم) فى ساحات الشرف أكرم مطاح :

أصبح السيف داء كم وهو الدا ... ء الذى لا يزال يعيى الدواء

وانتحى القتل فيكمو فبكينا ... بدماء الدموع تلك الدماء

وإذا كان هذا شأن آل حميد ، أسرة القادة السادة والسادة القادة ، فماذا يكون قدر النساء عندهم ؟ . أولئك اللواتى لا ينهضن فى حرب ، ولا يقمن بعبء القتال فى معترك !

أتبكّى من لا ينازل بالسيـ ... ـف مشيحاً ولا يهز اللواء ؟!

والفتى من رأى القبور لما طا ... ف به من بناته أكفاء

... البحترى هذا فى شبه استهتار ، حتى ليوهم ... صادق فى عدد الاستهانة بقدر المرأة ، محق فيما ... من ضعف الشأن وقلة الغناء ؛ وهو يدعم حجته ... حوادثه ، ويستشهد أنباءه :

... من التلاد الأعلى المعدا ...

... بل حية ورقطاء

وتشكى ... ن وقد أعطى الأديم حباء

وشقيق بن فاتك حذر النا ... ر عليهن فارق النعماء

أدلة تلك صادقة وشواهد ناطقة ، كان ينبغى لأبى حميد أن يجيل فيها عقله ، ثم يقيس على الخضوع لها عاطفته ؛ وإن هو لم يقنع بها فهناك أمثلة أخرى من صحيح الأنبياء ، لا يشك فى صدق خبرها وعظم دلالتها :

وعلى غيرهن أحزن يعقو ... ب وقد جاءه بنوه عشاء !

وشعيب من أجلهن رأى الوحـ ... ـدة ضعفاً فاستأجر الأنبياء

واستزل الشيطان آدم فى الجنـ ... ـة لما أغرى به حواء ...

فإذا لم يكفكف أبو القاسم بعد كل هذا من عبرته ، ثم يعتصم من جزعه بالصبر ، ويطلق من عز أمثاله بعزم التأسى ... فما هو إلا العاجز المغلوب على أمره ، شأن كل رجل تذرى عيناه على امرأة دمعة :

ولعمرى ما العجز عندى إلا ... أن تبيت الرجال تبكى النساء !؟

وهكذا يلتقى البحترى فى إرسال فكرته الرائقة ، ويستطيع أسلوباً محبباً فى التعزية مخاطباً به عقل الرجل فى موضع كان ينبغى فيه أن يخاطب عاطفته ؛ وليس البحترى بالذى يجهل الفرق بين خطاب العقل وخطاب العاطفة .

ولقد كان يجوز له أن يلقى بهذا الحديث عن المرأة فى مجلس تناظر يدور فيه البحث حول شأنها ومبلغ أهميتها فى الحياة ، فذلك مقام تصطرع فيه العقول بسلاح من الحجة والمنطق ، وتستمد منه إلى شواهد من التاريخ تثبت رأيها وتدعم وجهة نظرها . أما فى مواقف العزاء فالأخير بأن يكون الخطاب للعاطفة المتطرمة وللوجدان الملتهب ، لأن من عذابه يفيض الحزن ، وفى قرارتها يصطخب الأسى ويثور . والبحترى فى مقاله هذا [illegible] عن معرفة ، ويعلى عبارته روحاً ليست من صميم نفسه .

ولسنا لا نحفل بها كل مرة فى باب النفاق ؛ إذ المرثى [illegible] الحزن [illegible] ذلك أن المرثى والسامع [illegible] ويفهمان أنه لا يزيد فى أكثر [illegible] فى الشعور بالحزن تخفيفاً منه ومجاملة وإحساناً ، فليس ثمة فى عيره أو فى شعوره وجه لمجاوزة منه أو نفاق . أما مثل حجج البحترى هذه القوية فلا يكون إلا من توليد الفكر المزيف والمغالطة المكشوفة . وهو لا يعترف لصاحبه فى هذا المقام بالحزن ثم يحاول تخفيفه عنه بمشاركته فيه مرة ، والتهوين أخرى ، كما يفعل أصحاب الرثاء عادة ؛ وإنما هو ينكر عليه هذا الحزن أصلاً ، ويستطيع الجد كله فى إنكاره ، موهماً إياه أن تلك رأيه وتلك عقيدته فى المرأة ، وأن ليس عليه إلا أن يجاريه فيها فينفض عن نفسه غبار الحزن ! والنظرية مع كل هذا فاسدة عرجاء ، والأدلة الناقضة بها أكثر فساداً وعوجاً . إذ الحق أن للبنت مهمتها العظمى فى الحياة ، ومكانتها الجليلة فى خدمة المجتمع ، وهى ليست تقل فى ذلك عن الرجل شأناً .

أما وأد البنات — الذى أشار إليه البحترى — فليس بالفضيلة التى يحث عليها أو يتأسى بها ... وأشعار شقيق ومهلهل وغيرهما من الجاهليين حوادث فردية لا تقيم مبدأ ولا تقرر قاعدة . وحزن يعقوب على يوسف لا يستتبع كراهيته للبنات لو أن الله رزقه منهن نسلاً . واستئجار شعيب لموسى لم يكن مما يقلل من قيمة بنتيه عنده . وأما حديث آدم وحواء فلا يصيح به عاقل من فى قلبه ذرة من الإيمان بقضاء الله وقدره .

والبحترى نفسه — وقد عرفت مقالته فى ابنة الحميدى — هو الذى رثى (زرزحا) ... من قصيدة فيقول :

وردع بى فى زرزح أن يومه	تعجل لم يمهل ولم يتنظر
فتى كذ لم تعقل المراله	وقلب إلى ذكراه لم يتغطر
عليك أبا العباس الصبر طالما	فإن لم تجـده طالعاً فتصبر
ولا لم أن ميراق دمع فإننا	رجعنا الرعى بعد التحدر

إنه غلام أبى العباس بن بسطام [illegible] وواحد من صغار الرصفاء فى بيته ... على كثرتهم ! [illegible] ما مقصد البحترى من هذا [illegible] ابنة الحميدى ؟ وما غايته من هذه [illegible] المفاجئة [illegible] سورة من صور النفاق ؟ — إنه رثى [illegible] إلى [illegible] أبى القاسم وتخفيف لوعته ؛ ثم لعله يخفى من وراء ذلك عطفه ، أو بعضاً من ثمرات ماله وساعه ؛ وبعض هذه أو كلها أغراض لا تنطق فى إنكارها على الشاعر الذى يكتسب بشعره ، ويتدرج فى أعطافه بقلة كتلك التى نشأ وعاش فيها البحترى . فنفاق الشاعر هنا خال من سوء البواعث ووضاعة المواقف إلى الحد الذى يعفيه من أكثر ما يتوجه إلى المنافق من لوم . إنه — مجرد النفاق — الذى أشرنا إليه فى أول الكلام .

على أن هناك صوراً أخرى من نفاق الأدباء تقترن من سوء الباعث أو سوء النتيجة بما يضعها فى مصاف الرذائل البغيضة ؛ وإن كثرة الأمثلة على هذا النوع الثانى لتنبينا من محاولة الكلام فيه ، وتبيح صوره بعد أخذ طلب لصوره ، فلنقتصر من ثمة على ما ذكرناه .

(يتبع) محمود عزت عرفة

الكتب الجديدة :

دراسات عن مقدمة ابن خلدون (١)

للأستاذ ساطع الحصري

ابن خلدون شخصية فذة في تاريخ المسلمين ، بل في تاريخ العالم ، سبق المفكرين جميعاً في خلق « علم الاجتماع » و « فلسفة التاريخ » : ذو عقل مفكر سما عن التقليد ، وطمح إلى الابتداع فوفق فيه كل التوفيق : قرأ كتب التاريخ ، وشاهد أحداث زمانه ، وسلط عليها عقله يحللها ويربط بين المتشابهات ، ويستخرج منها قواعد كلية رأى أنها قوانين اجتماعية طبيعية لا تختلف كقوانين الطبيعة في الضوء والحرارة ، من عرفها وسار وفقها وفق ، ومن خالفها خاب وخسر ، وكان ذلك [illegible]

ولكنه — مع الأسف [illegible] الأمم الإسلامية — مدى [illegible] والعقول [illegible] مستحكم ، فلم تنل مقدمته ما كانت تستحق من بحث ودرس وتمحيص ولا كان : كما جاء والأمم الأوربية في بدء نهضتها ، فاتجه علماؤها إلى ابن خلدون في بحثه ، وأخذوا مادتهم من الغرب ، كما أخذ ابن خلدون مادته من الشرق ، ثم توسعوا في بحثهم ، وترجموا المقدمة إلى لغتهم وعلقوا عليها يستفيدون منها ، ويبينون خطأ بعض ما جاء فيها ، ويلفتون النظر إلى محاسنها ، ويكملون بنيان علم الاجتماع بما استكشف من قوانين ، حتى وصل هذا العلم إلى درجة من النضوج نحن فيها تلاميذه ، وقد كان فيها أستاذنا ابن خلدون أستاذهم ومفكرهم . ولم نوفه حقه من الدرس والإشادة ، كما وفاه حقه أساتذة الغرب ، فنشروا مقدمته خيراً مما نشرنا ، وترجموها إلى لغتهم ، وعلقوا عليها التعليقات البديعة العميقة ؛ ونحن إلى الآن لم نعن بإبرازها في شكل صحيح ، فطبعاتنا مملوءة بالأغلاط ، ومملوءة بكثير من مواضع النقص . ولا ندري متى يأتي الزمان الذي نلتفت فيه إلى « المقدمة » فننشرها نشراً علمياً صحيحاً ، ونستفيد مما وصل إليه علم الاجتماع الحديث ، فنبني بناء علمياً على تاريخ الشرق وأحداثه ، ونرسم الخطط المستقبلة ، فنحيي ابن خلدون في بلده كما حيي خارج بلده .

ومن البشائر الطيبة أن نرى الأستاذ « ساطع الحصري » يوجه عنايته إلى ابن خلدون وآثاره ، ويعكف على دراسته في صبر وأناة وعمق ، وقد بلغ من إعجابه به وحبه له أن سمى إحدى بناته « خلدونة » ، وتكنى هو (بأبي خلدون) واطلع على ما كتب عن ابن خلدون في اللغات المختلفة وترجمة المقدمة والتعليقات عليها ، وقارن بين الباحثين الأولين في علم [illegible] ثم طلع علينا بهذا السفر الأول .

[illegible] موقف ابن خلدون من المؤرخين ، [illegible] المقدمة ولغتها ، ومكانة المقدمة في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ؛ ويقارن بين ابن خلدون وفيكو ، ذلك الكاتب الإيطالي الذي نسب إليه خلق علم الاجتماع ، ويلخص وجهة نظره ، ويوازن بينها وبين أبحاث ابن خلدون ؛ وكذلك يقارن بين ابن خلدون ومونتسكيو ، ذلك الكاتب الفرنسي الشهير ؛ ويخرج من ذلك كله إلى رفعة مقام ابن خلدون عن مقاميهما ، وأسبقيته في تأسيس علم الاجتماع منهما . ويعرض في القسم الثالث لآراء ابن خلدون ونظرياته في موضوع التاريخ ومهمة المؤرخ ، وفي طبيعة الاجتماع والقسر الاجتماعي ، والتقليد وطبائع الأمم ، ونظرية العصبية ، والخط والكتابة ؛ وفي كل ذلك يقارن بين ما عرضه ابن خلدون وما عرضه غيره من علماء الاجتماع المحدثين — وبذلك ينتهي هذا الجزء في ٣٢٢ صفحة . وبعد — فنرجو أن ينجز وعده — أن سينشر بحوثه عن الدولة في علم

(١) طبع هذا الكتاب في مطبعة الكشاف ببيروت ، ويطلب في مصر من مجلة الرسالة .

ابن خلدون ، وآرائه في علم النفس والتربية ، ونظرية التطور ، وآرائه في الحروب ، ونظرياته في المذاهب الاجتماعية وفي الدين واللغة والأدب وفي الكتب العربية .

والأستاذ ساطع الحصري في هذا الجزء الذي قرأته ممتاز كل الامتياز بابن خلدون وسلامة منطقه وعمق تفكيره واستقصاء بحثه ؛ وبعلماء الغرب في جودة العرض وجمع الشواهد وتحليل النصوص ، والصبر على جمع الوثائق والمستندات .

وقد التزم الأستاذ استعمال مصطلحات جديدة لبعض الألفاظ الأفرنجية قد ترى أنه يقصها النقل ، كترجمة Rationalism بالتفكير العقلاني ، و Scholastique بالتفكير المدرسي ، و Positivism بالفلسفة الإيجابية — ومثل التفكير الكلامي ، و Races بالعروق البشرية ، و Omarties بالسلطة التعصبية الخ . وقد وقفت طويلاً في كلامه على أنه القديمة عند رأيه في معنى « العرب » ، فالأستاذ يرى أن ابن خلدون يقصد كلمة « العرب » في الفصول التي ... ابن خلدون من أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ... لم الملك إلا بصبغة دينية الخ ، إنما يريد بهم البدو والأعراب ، ولا يريد من عنصر من العرب ، واستشهد على ذلك بجملة استشهادات قوية . وقد رجعت إلى هذه الفصول في المقدمة فقرأتها وتمعنت ، فرأيت أن الأستاذ محق في هذا التفسير في بعض المواضع دون بعض ؛ فابن خلدون يستشهد مثلا في هذه الفصول بقوله ... وليس هؤلاء بدواء ، ومثل ذلك كثير . فالذي أرى أن معنى العرب في ذهن ابن خلدون لم يكن محدودا ، فأحيانا يستعمله في معنى البدو والأعراب كما يفسره الأستاذ ، وأحيانا يستعمله في المتحضرين كما في هذا الموضع الذي أشرنا إليه ، وكما في فصل أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ، وفي فصل أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم .

لسنا نريد أن نقر ابن خلدون على رأيه ، فقد عرضنا في نقد الإسلام ... لبعض خطئه في هذا الباب . ولكن الموضوع الآن ما الذي يريده ابن خلدون بكلمة العرب في هذه الأبواب ؟ يرى الأستاذ أنه يريد البدو والأعراب ؛ ونرى أنه لم يستعمل كلمة العرب استعمالا محدد المعنى ، فهو تارة يستعملها في البدو ، وتارة يستعملها فيما يشمل البدو والحضر ، وتارة يستعملها في الجنس متطوراً من بداوته إلى حضارته .

وعلى كل فالكتاب يستحق الإعجاب وحسن التقدير ، ويشجعنا على أن نأمل منه المزيد في إتمام أبحاثه . ونرجو أن تنقشع هذه الحرب التي حرمت العلم أيضا فيما حرمت ، فيكون أثرها واضحا في ورق هذا الكتاب وطبعه .

وفي اعتقادي أن الكتاب سيفتح فتحا جديدا في توجيه النظر إلى الدراسة بابن خلدون ، وخاصة مقدمته ، فتتوالى بين رواد العربية وأدبائها وكتابها الكتب النافعة في هذا الباب ... والله الموفق .

أحمد أمين

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر —